غَيْبَة الغنَمَة

المؤلف: د. محمد حمد
العنوان: غيبة الغنمة (مجموعة قصصية)
الطبعة: الأولى، 2018م
جميع الحقوق محفوظة

إصدار:

مؤسسة الأفق للثقافة والفنون ج.م- حيفا
البريد الإلكتروني:
elofuq@gmail.com

مفعال هبايس . الاشياء الجيدة تبدأ هنا

الغلاف والإخراج الداخلي:

الرِّيشة

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذه الرواية، أو أي جزء منها، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من المؤسسة.

قصص

د. محمّد حمَد

غَيْبَة الغنَمَة

مؤسسة الأفق للثقافة والفنون

ق

مقصّات وسكاكين في الذاكرة

(1)

محمود الكبش في نخوته وقوّته، شاب أمضى من السّيف إذا امتشق من غمده، لدرجة أنّه إن أمسكَ بشجرة، يكاد يقتلعها من جذورها، وبإمكانه لوحده مطاردة عجل شارد من القطيع، فلا ينفكّ عنه حتّى يمسكه من ذيله، كمن يمسك صوصًا ابن يومين.

الشّيء المميّز عدا ذلك في شخصيّته، هو سمرته المائلة إلى الخمرة، بحيث كنت ترى فيها ملامح شفق، يتداخل في لحظات المغيب مع طلائع خيول الغسق. وفوق جبينه تطاردُ أولى نسيمات المساء ذؤابتين شاردتين من شعره

الجعد، من دون جدوى، وكأنّهما نقوش لضفائر على رأس تمثال فرعونيّ.

كان من عادته أن يخرج في طرقات القرية، وفي مقطع محدّد، حسب تخطيط مسبق كان يدور في رأسه، وهو يمرّ بمحاذاة السّدرة حيث البيادر ومركز البلد. والسّدرة شجرة مباركة في عيون أهل عيلوط، ما زالت النّساء تتبرّك بأكل حبّات من ثمار الدّوم منها، للشّفاء من العقم، أو لولادة المزيد من الأبناء، للمُقِلّات اللّواتي لم يرزقن سوى بمولود أو اثنين على أكثر حدّ، خاصة إذا كنّ من البنات. وكان محمود يتخيّل أحوال الشّبق الّتي كانت تصيبهنّ عند النّوم، وإن من باب الوهم، وهنّ يستدرجن أزواجهنّ لمواقعة تأتي بالمعجزات.

ثمّ يصل محمود إلى الحارة حيث جامع النّبي لوط، فيقف هناك لبضع دقائق، وربما خطرَ في باله هذا النّبي، وقومه

الشّاذين، وكيف أنّه تركهم وأتى، على مفخرة لأهل عيلوط، إلى هذا المكان، فشرب من العين التي سمّيت على اسمه "عين لوط"، ثمّ يسترجع في مخيّلته ما تعلّمه في المدرسة من الأستاذ "أبو عصام اللوبانيّ"، عن العلاقة بين هذه التّسمية واسم القرية "عيلوط". وبعد ذلك يخرج من الحارة إلى العين. وكانت العين مقصده وهدفه على طول الخطّ، والمسافة بينها وبين الحارة لا تزيد عن ثلاثين مترًا، لكنّه كان يقطعها ببطء شديد لا يقلّ عن نصف ساعة، وليس هذا التّباطؤ من عادته، فهو أسرع من الرّصاص، ولا يحلو للنّاظر، وللنّاظرة تحديدًا، إذا أردنا الحقّ، أن تنظر إلى طريقته في المشي، وكأنّه قارب سباق يشقّ العباب بصدره الممتلئ، في نهر متدفّق التيّار، يستعين في تدفّقه بعضلات مفتولة أشبه بحبال سفن عملاقة، وجسم رياضيّ يكاد يكون لأطلس أو هرقل.

وكان عادة ما يدخل في الزّقاق ليعمل طريقًا التفافيّة، فيمرّ بجانب المعصرة ودار "أبو جنينة"، ويدور إلى العين من جهة الشّرق، وبهذا تطول الطّريق قليلًا. وكانت وردة بنت صالح العكر هي السرّ الّذي يقف وراء طلعات محمود الكبش ونزلاته.

(2)

وردة صبيّة بنت سبع عشرة سنة. أشهى من البدر في ليلة "15 الشّهر" إذا طلعت، أو على الأصحّ إذا نزلت نزلة راس التّين، ووصلت إلى العين لملء جرّتها. كانت تسكن قريبًا من حارة العين، حيث تعيش عدّة عائلات محافظة. هذا لا يعني أنّها كانت تتّفق مع بنات هذا الحيّ في الأمور الّتي تشهد انفتاحًا وحرّيّة، فمن طبعها الميل إلى مخالفة كلّ ما هو تقليديّ. كان والداها مِثالين على التشدّد الّذي لا

جدال فيه، وكانت كثيرًا ما تصرخ في وجهيهما، يشفع لها تدليلهما لها، لكونها وحيدتهم الّتي جاءت بعد عشر سنوات من الانتظار.

عندما كانت وردة تنزل نزلة راس التّين لتملأ جرّتها، تكاد تتفجّر في الرّائي إليها براكين باطنيّة، وهو يراها تندفع في ثوبها الضيّق الشفّاف الّذي يكاد يتمزّق تحت تأثير قوى الدّفع الداخليّة لجسدها المجدول، كحوريّة بحر خرجت من عالم الأساطير. أمّا جدائلها المجدولة على الطّريقة الأمهريّة، فكانت تصل إلى ما تحت سرّتها، وتتناثر على وجه ملائكيّ ناصع البياض، تشتهي فيه أقراص الجبنة البلديّة على جوع أو صيام.

هذا إذا نزلت، أمّا بعد أن تملأ الجرّة، وتطلع طلعة راس التّين، فهناك الرّوعة بالتّصوير البطيء. في الحقيقة لم يكن محمود الكبش يريد من كلّ طلعاته ونزلاته الّتي يقوم بها

يوميًّا، أكثر من أن ينظر إلى وردة وهي تعطيه ظهرها، وتطلع طلعة راس التّين، وكان يشعر بذلك قمّة المتعة، تفوق متعة النّظر إلى عينيها الخضراوين ووجهها النّاصع البياض الّذي رآه عدّة مرّات، ولكن بحضور طائفة من البنات. لشدّ ما كانت وردة تمقتهنّ، خاصّة عندما كان يصل محمود إلى العين، ويستأذنهنّ أن يشرب، وكانت تكاد تتفجّر من الغيرة عندما كانت تطلب إحداهنّ منه أن يعينها في رفع الجرّة إلى رأسها.

كانت وردة تعرف هذه الحركات والتحرّشات، وكانت عادة تسبق بنات الحارة، ولا ترافقهنّ، لعلّها تنفرد بمحمود. كانت تخشى عليه من نظراتهنّ البدائيّة التي كلّها افتراس بأسنان حادّة، وكانت أمنية أمنياتها أن تتحقّق لذّتها على شفا لحظة من العمر، يكونان لوحدهما على العين، أو في أيّ مكان آخر، ولا يتكلّمان، وإنّما فقط يبتسمان لبعضهما،

ثمّ تقترب من أنفاسه، على مرمى قبلة بعيدة على قرب، وأن تدفئ روحها الباردة برد الصّحارى، من الحرمان والظّمأ، بلهيب أنفاسه. إنّها تذكر جيّدًا، في يوم من الأيّام، كيف تلقّى بصدره تلك القبضة من الوحل، بعد أن قذفتها بها إحدى نساء حارة العين. كانت المياه مقطوعة في البلد، ومنذ ساعات الصّباح وجميع النّساء والفتيات يملأن الجرار، ومع الضّحى حضر الرّعيان لملء البراميل وسقي الماشية، فازدحمت العين، وابتدأت الأجساد تندفع وتضغط على بعضها، وكان محمود من جملة الرّعيان الذين أتوا لتعبئة البراميل.

كانت وردة قريبة جدًّا منه، وحاولت جهدها الالتصاق به، وأدهشتها قوّة عضلاته، وجدّيته. وفجأة جاءت إحدى النّساء اللّواتي يسكنّ حارة العين، وسبّت دين الماء المقطوعة والبنات والطّبيخ، وقالت: (بدّي أعفّر).

وكانت هذه طريقة قبيحة تستخدمها الوقحات، والنّساء المسترجلات اللّواتي لا يتورّعن عن خوض أيّة معركة اقتتال بالأيدي، وكبش الشّعر، حتّى مع رجل. أمسكت المرأة قبضة من الوحل وضربت بها مكان خروج الماء، كانت وردة في مركز الهدف، وبسرعة خاطفة استدار محمود، من دون معرفة من ستكون الضحيّة، وتلقّى الخبطة بصدره العريض، وحال دون تلوّث الماء في كلّ الجرار الّتي مُلئت وكانت قريبة من الهدف.

عادة كانت مثل هذه الحوادث لا تنتهي بأقلّ من (طوشة) نساء، تستخدم فيها لغة عجيبة غريبة من الألفاظ والمسبّات الّتي لم "يتشرّف" بسماعها رجل. وكان وجود محمود هو السّبب الّذي منع الكارثة؛ فقد احتمل الإهانة بكلمة واحدة قالها لها: يلعن أصلك. واستمرّ بملء براميله، ولمّا انتهى كانت وردة أوّل من ملأت جرّتها بعده، والصّحيح

أنّه هو الّذي أعطاها المجال، ولكن بطريقة لا تفضح حقيقة مشاعره نحوها.

عندما رآها تطلع طلعة راس التّين، حاملة الجرّة على رأسها، ظنّ نفسه في الجنّة، ينظر إلى حوّاء فاتنة، تندفع بين كروم التّين، وتختفي في طريق ملتف، كأفعى تبتلعها.

لم يأخذ المشهد أكثر من دقيقة، لكنّها في كلّ ثانية، كانت تمنحه سنة عمر زيادة، وسنتيمتر طول في كلّ أعضاء جسمه، الّتي تبقى على حدّتها وتوثّبها متجمّدة من الدّهشة إلى أن تختفي وردة في كرم التّين، وتبتلعها الطّريق، فتذوب وتنكمش.

كان ثوبها المشقوق من الخلف بمقدار فتر، كافيًا للتّنبيه عن وجود مناجم من المرمر والرّخام، تكفي لفتح مئات المشاريع من الأحلام البلوريّة، يكفي محمودًا الكبش واحد منها، لأن يناطح الدّنيا برمّتها وحده. أمّا طريقة مشيتها

الاستعراضيّة من الخلف، فتتحرّك إلى اليمين وإلى اليسار، في دائرة لا يتجاوز قطرها خصر وردة، شهيّة كحبّة تين يخرج منها العسل. مشية اهتزازيّة تنبئك أن هزّة أرضيّة ستحدث، مدمّرة كلّ شيء حولها، حتّى حواسّ محمود الكبش، ومن جملتها عيناه الثّاقبتان اللّتان تصهران العظم بنظراتهما.

(3)

وتكرّرت طلعات محمود الكبش ونزلاته. الطّريق معروفة، تبدأ من تحت السّدرة حتّى الحارة وجامع النبي لوط، ثمّ يتباطأ في طريق العين، مرورًا بالمعصرة والزّقاق، وما أن يصل العين من جهة الشّرق حتّى تكون وردة قد ملأت جرّتها، وابتدأت تطلع طلعة راس التّين، فما يحلو له شيء أحبّ إليه من النّظر إلى فلول جسدها المطاردة بعيون صقر

مثله. أحيانًا كان يفوته القطار ولا يراها، أو يرى للحظة ضفيرة من شعرها، أو طرف ثوبها قبل أن يبتلعه كرم التّين، فكان يقنع بذلك، ويرى فيه زادًا لأيّام، ومادّة تأمّل في النّجوم لليال.

كانت اللّيالي مسرحًا لقوافل من الأفكار المسافرة في صحارى قلبه، تستوقفها واحات النّظر إليها وهي تحمل الجرّة، فتسقيه ارتواءً إلى حدّ السّراب من نيل همسة فجر على شفتيها، وكانت أحاديثه لنفسه أشبه بسهاد نجمة تنتظر القمر في ليلة محاق:

أيّ براكين عشق تضطرم في قلبك عند رؤيتها؟ أهو الحبّ أم عبث الشّباب والوهم الّذي تزيّنه النّفس، فيبدو عناقيد عنب للصّائم، أو خيوط عنكبوت للغريق؟ أما آن للنّفس المحتارة أن تستقرّ؟ ألا تكفي ثلاثة عقود متكاملة لأن تهدأ ثورتك؟

وردة لا شكّ تحبّك، أو على الأقلّ تميل إليك. هي أمل المستقبل، وبراعم الغدّ الطريّة.

– آه لو ألمس فيها نوّارة لوز واحدة، أو فراشة ملوّنة حطّت على هذه النّوارة!

– يجب أن تكلّمها. عليك مصارحتها بهذه الحالة من الغليان الشعوريّ واللاشعوريّ المصاحب للحظات حضورها أمامك وفي ذهنك. عليك أن تعرف حقيقة مشاعرها تجاهك، وتتأكّد من أنّها تبادلك الكهرباء نفسها.

– أيمكنني ذلك، أمام عيون بنات الحارة المحمومة، وعيون النّاس الّتي قد تظنّ بي الظّنون؟

وخطرت له الفكرة؛ لماذا لا يسبقها إلى كرم التّين، وينتظرها هناك حيث لا أحد، إنّها الفرصة الوحيدة الخالية من الشّبهات. وهي الفرصة الأولى ليراها وهي تحمل الجرّة من زاوية نظر مختلفة، من الأمام.

وأعجبته الفكرة، وتحيّن الظّرف المناسب لتحقيق ذلك.

(4)

كان راس التّين مرتفعًا على سفح الجبل، تغطّيه أشجار التّين بشكل كثيف. انتقى محمود ناحية منها، قرب الممرّ الضيّق الّذي تمرّ منه الفتيات.

وجلسَ كنمرٍ ينتظر غزالة صادرة عن النّبع، بهلوسات شبقيّة مفعمة بتيّارات من الشّعور البراكينيّ وهو يتوثّب للاندفاع المحموم.

كانت الخواطر والأفكار تهبّ كأعاصير التّايفون في خياله، مع كلّ نسمة ناعمة تحرّك أوراق التّين القريبة منه، وكأنّها أوراق تين الجنّة وهي تغطّي الحيّز الّذي يشغله بطاقيّة إخفاء، تتيح له المجال أن يرى ولا يلحظه أحد. حتّى أنفاسه السّاخنة الّتي حاول مرارًا أن يعدّها في الدّقيقة، لم

تفلح بفضحه، فقد عمل كلّ جهده أن يكتمها، في كلّ لحظة تحرّكت فيها الأغصان، وظنّ أن وردة اقتربت.

كيف سيبدأ معها هذا الكبش الهائج، وهو يخشى عليها من قرونه، وعلى نفسه أن يكون ضحيّة صدّها ونفورها؟

هل يصرّح لها بأنه يحبّها منذ أكثر من تسعة شهور، وأنّه آن لهذا الحبّ أن يولد، وأن يُسقى من ينابيعها الدّافئة دفء قبلة مبرقة مرعدة في ليلة باردة. أن يبثّها همومه، ويكشف لها خفايا أحلامه، ومواضيع تأمّلاته وهو يعانق النّجوم بنظراته العبر-فضائيّة. إنّه يتخيّلها هناك كأندروميدا، المرأة المسلسلة الّتي تمتلك مجرّة بكاملها، وتنجذب إليها ملايين النّجوم والكواكب، فيكاد يجنّ كيف يمكن له الوصول ليكون مجرّد كويكبة في مداراتها الحلزونيّة. تقتله هذه الأفكار، ويكاد يصرعه الخوف فيما لو صدّته وصرخت وجمّعت عليه النّاس بصرخاتها. كيف سيخرج من هذه

الورطة؟ وماذا سيقول عنه النّاس؟ وهل سيسلم من لسان صالح العكر السّليط، ولسان بدريّة زوجته الّتي تحسب لها حارة العين ألف حساب؟

لكن الحياة تهون يا محمود في سبيل نيلها. هذا هو زمن المواقف الجريئة والعركات الشّجاعة، ولا يمكن لك أن تحظى بوصال من تحبّ بدون الحدّ الأدنى من شروط تحقيقه، ألا وهو التّصريح بحقيقة مشاعرك تجاه من تحبّ. ولن تعرف كلّ ما يخطر في بالك من ردود فعل بدون أن تجرّب، فلا بدّ لك إذن من التوكّل على الله، ثمّ ما بالك مرتبكًا خائفًا وكأنّك أوّل عاشق على هذه الأرض، وكأنّ وردة أوّل معشوقة؟!

وردة في تلك اللّحظات كانت قد ابتدأت رحلة العودة إلى البيت، على رأسها جرّتها المليئة بالماء، تطلع طلعة راس التّين بنشاط واندفاع وحيويّة، وكأنّ ماء الحياة يجري بها

وبالجرّة بانحدار معكوس، من الأسفل إلى الأعلى. وأحسّ محمود بها تقترب، مع كلّ خرشفة شوك أو ورقة تين يابسة، فأحسّ بالتّينة تبرعم، وبقلبه يبرعم، وبجسده يبرعم. آه كم أنتِ ساحرة فاتنة يا وردة! وما أجمل صدرك الممتلئ ورمّانتيك النّاضجتين وهما تعزفان مع الجرّة، على أوتار عموديّة وهميّة معزوفة لآلهة إغريقيّة لم تولد بعد إفروديت.

اقترب محمود من وراء شجرة التّين الكبيرة الّتي في وسط المكان، كآدم يخفي مشاعره وأحاسيسه المفعمة بالخوف والقلق والترقّب والإحساس بالآتي المجهول، وما أن اقتربت وردة من الممرّ المحاذي للجذع الكبير للتّينة، حتّى همس بصوت خافت: وردة!

والتفتت وردة إلى مصدر الصّوت واستدارت، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان؛ فما أن استدارت لتعرف مصدر الصّوت حتى مالت الجرّة عن رأسها، ولمّا كان الممر ضيّقًا

بين أغصان التّين، فقد ارتطمت الجرّة بغصن لم يكن هذه المرّة في الاتّجاه الّذي عرفته الجرّة وعهدته منذ سنوات، وهي تمرّ بجانبه بدون خطأ واحد. وكان أن وقعت الجرّة عن رأسها وانكسرت وتبلّلت ثيابها، وصرخت مذهولة: يا فضيحتك يا بنت صالح العكر وبدريّة الحاج!

وهال محمود ما فعله غصن التّين برأس وردة، ولم تكن قد عرفت أنّه صاحب الصّوت، وخشي أن يكون الموقف قد أفسد الرومانسيّة المطلوبة، وإن كان في سرّه قد رأى أنّها بهذا "الدشّ" أجمل مخلوقة خلقها الله؛ فقد أظهر الثّوب الشفّاف المبلول مفاتنها بشكل أكثر إغراءً وإثارةً. واحتار ماذا يفعل؟ هل يكمل الخطّة حسبما رسمها، أم ينسحب قبل أن تعرفه وتتّهمه بما حلّ بها؟ وكأنّما اختار الثّانية، فاستدار نحو الجذع ليختفي، لكنّها على الرّغم من المفاجأة الّتي عقدت لسانها، انتبهت إلى الذّؤابتين اللّتين تحرّكتا

خلف الجذع، وبسرعة الضّوء أو يزيد، سبقته إلى الاتّجاه المعاكس ليلتقي وجهاهما على مرمى قبلة مرعدة مبرقة في ليلة باردة؛ قبلة بعيدة على قرب، قريبة على بعد.

كانت أنفاس محمود أشبه بلهيب فوّهة بركانيّة توشك على الانفجار، أمّا خدود وردة المبلّلة بمياه العين الباردة، فقد كانت الورد نفسه.

وأحسّا في لحظة، ربما كانت ثانية واحدة أو اثنتين، أنهما في الجنّة وأوراق التّين تحجبهما عن الدّنيا كلّها. وقبل أن يقول لها، أو يجرؤ على تحريك شفتيه المرتعشتين، كانت الظّبية قد انسلّت والابتسامة الماكرة على شفتيها، ومحمود مشدوه بخيوط الدّهشة وكأنّه صورة مجمّدة.

وصلت وردة البيت لاهثة تكاد كل أعضاء جسمها تتبعثر على الطّريق الملتوية كأفعى بين كروم التّين، لتصرخ في وجه أمّها: (قلتلّك مية مرّة هاي الحفّاي بتمزلط، بدكيش

تشتري لي حفّاي؟ تفضّلي هيّاني اتزحلقت وانكسرت الجرّة، وألله ستر ما حداش شاف، وِاللا كان بنات الحارة عملوني جريدة).

(5)

عادَ محمود إلى البيت بنشوة صوفيّة، وتكلّم مع أمّه بالموضوع، وقال لها على المكشوف:

- (يمّا بدّي تخطبي لي وردة بنت صالح العكر).

- (ليش يمّا انقطعت البنات من البلد وما ظلّش غير بنت بدرية؟).

- (يمّا بدّيش ولا واحدة غير وردة).

- (ليش شو كنها فاطمة بنت النّبي؟)

- (يمّا قلتلّك بدّي البنت، والبنت ميّالة. شو بدنا في بدريّة ودواوين النّسوان).

- (والله يمّا خايفة تكون بدريّة واللا بنتها عاملين لك عمل. على كل حال شوف أبوك شو بقول).

ولم تكن هنالك صعوبة تُذكر في إقناع "أبو عبد الله"؛ فقد تمنّى هذه اللّحظة منذ أكثر من عشر سنوات، خاصّة وأنّه زوّج عبد الله الأخ الأكبر، وسعد الأخ الأصغر، في حين رفض محمود فكرة الزّواج من أساسها، وفضّل البقاء في العزوبيّة ومطاردة الحسناوات.

في المساء تمّت قراءة الفاتحة في بيت صالح العكر.

(6)

ماذا يمكن أن يقال عن احتفال الفلّاحين؟

عرس بسيط، وأغان شعبيّة، وطعام بالكاد يكفي، لكن فيه البركة، وكسوة بسيطة للعروس مع صيغة ذهب تشكّل الحدّ الأدنى. ومع الرّضى والقبول وبساطة الحياة، تنعدم

المفاهيم الكميّة، ويصبح الجميع حريصًا على السّترة وإبداء حسن النيّة وتحقيق المصاهرة.

ووسط غيرة بنات الحارة وحسدهنّ، تمّ دخول محمود على وردة في تلك اللّيلة.

كانت خجولة، وكان مرتبكًا. لكنّه لم يرد أن يظهر بهذا الموقف، وفاجأها بالسّؤال:

- (بتحبّيني يا وردة؟)

وأجابت بخجل:

- (اسكت يا محمود. لكان ليش قبلتك).

وابتسم محمود من طريقة جوابها، وكأن لفظها لكلمة الحبّ أمر محرّم، لكنّه لم يرد النّقاش معها، ولعلّه في عجلة إلى استخدام لغة أخرى غير لغة الكلام، لغة يتقنها الجسد بكلّ تفاصيله وأبعاده، لغة طالما تكلّم بها خياله، وشحنها بقاموس عرائسيّ ينضح بمصطلحات العشّاق وأرباب

الشّبق. وبدون مقدّمات، اندفع محمود ليقطف الوردة في ذروة إزهارها بدون تأجيل أو تردّد، وفق خطّة رسمها بدقّة، وسهر على تفاصيلها ببراعة مجرّب. وأدهشتها جرأته وهو يكتسح مناجم البلّور والمرمر، ويغرز في مساماتها أصابع الدّيناميت، انتظارًا لانفجارات السّوبر نوفا الّتي حلمت بها المجرّات.

كانت غائبة في لا وعي النّشوة، سابحة في ملكوت ذائبيّة الحواس وفوضى معزوفة الأصابع، غارقة في استشعار الشّفاه المحمومة وهي ترسم على امتداد جغرافيا الجسد خرائط للقبل وتضاريس للتحسّس.

كان كالمطر السّاخن يحاول أن يطفئ النّيران، فيكتشف أنّه صواعق محرقة، ونافورة أنفاس حارّة ترشّ ملائكيّة جسدها، ومواضع التوثّب في صدرها، بدشّ من القبل لم تحلم به البراكين.

كان وكانت، ولكن تخفي الحياة لنا مفاجآت لا نتوقّعها في مثل هذه اللّحظات. نظنّ أنّنا على وشك أن نصل، وفجأة تتعطّل بنا المراكب، أو على الأصحّ يلجم المجهول خيولنا الجامحة؛ فمحمود الّذي كان مندفعًا كحصان، وفائرًا كإعصار، يشعر وهو قبيل الأوج والذّروة أن شيئًا يحدث له.

يشعر بتراخ في كلّ عضلاته، فتور وانكماش يفتكان به، والمسكينة تضطرب وتفقد توازن هيجانها، ولا تدري ما الّذي يحدث. يفقد محمود أعصابه، ويحاول الكرّة من جديد، وتساعده الّتي هو في سريرها بتحضير الوصفة السحريّة لخروج المارد من القمقم، لكن تعود الأمور في غير اتّجاهها الصّحيح.

ما الّذي يجري لهذا الكبش الخرافيّ في ليلة عرسه؟ وكيف سيكون موقف عروسه وأهله والنّاس إذا انتهت هذه اللّيلة على (فاشوش)؟

(7)

سرح محمود بذكريات قديمة حينما كان ابن أربع أو خمس سنوات. هذه ليست المرة الأولى الّتي يفكّر بهذه المرحلة من طفولته، لأنّ ما تذكّره كان يفرض نفسه على ذاكرته، ولا يستطيع منه إفلاتًا. كيف لا والأمر يتعلّق بعذاباته ومحنته النفسيّة، هو ولفيف من أبناء جيله.

كانت العادة أن يحضر مُطهّر من خارج القرية، ويقوم بختان كلّ الأولاد المولودين حتّى سنّ أربع أو خمس سنوات وربّما أكثر بقليل. والسّؤال: لماذا لا يأتي المطهّر قبل ذلك ويطهّر الولد عندما يولد، أو بعد أسبوع أو أسبوعين.

والجواب: هو أن طبيعة الحياة في تلك الأيّام فرضت أن يكون المطهّر هو نفسه الحلّاق والطّبيب البيطريّ والطّبيب المداوي بالحكمة العربيّة. ولم يكن في المنطقة كلّها أكثر من مطهّر أو اثنين، ولهذا فالعمل كثير، والتّجوال في القرى يأتي لأغراض مختلفة، ولهذا كان يخصّص المطهّر أسبوعًا أو أكثر لختان جيل من الأولاد كلّ عدّة سنوات.

تخيّلوا عمليّة الختان الجماعيّة التي كانت تقام للأولاد في قرية ما؛ ملحمة دمويّة سيفتحها هذا الرّجل المتعدّد المهامّ، سيكون هؤلاء الصّغار ضحاياها!

جاء دور حارة محمود الكبش. جميع الأولاد حتّى ستّ سنوات تمّ إدخالهم إلى زريبة دار "أبو عبد الله"، في حين تكفّلت أمّ عبد الله برعاية القطيع ريثما تتمّ العمليّات الجراحيّة. عندما جاء المطهّر، انتبه محمود إلى "العلقة" السّاخنة الّتي سمع عن كوابيسها من الأولاد الكبار من

قبل؛ رأى رجلًا له شاربان كأنّهما ذنب عنزة سويسريّة، يحمل حقيبة كبيرة سوداء تسمع أصوات المقصّات والسّكاكين تطقطق فيها عن مسافة ميل. كان الشّاربان وصوت الطّقطقة وحدهما كافيين لأن يقفز محمود الطّفل من الزّريبة وينطلق بأقصى ما أُوتي لساقيه الرّفيعتين من قوّة خارج الحواكير والسّناسل، صارخًا ملء فيه ومن قحف رأسه المسكون بالرّعب والكوابيس:

- (بِدّيييييييش أطّهاااار).

ولحقه مجموعة من شباب القرية الّذين تمّ ختانهم بالتّأكيد في جولات سابقة، فوجدوه مختبئًا بداخل خُمّ دجاج الحاجّة "ظريفة" بحاكورة دار العبد "أبو ورّاد"، واقتادوه أسيرًا مكبّلًا بعد معركة حامية من العضّ والقرص والخرمشة، ومحاولات الإفلات، والشتائم والمسبّات (اللي من قاع الدّست، واللي من الزنّار وتحت).

اصطفّ الأولاد صفًّا واحدًا، وكلّ واحد يحاول ألّا يكون هو الأوّل في الصفّ. وتذكّر محمود كم مرّة من المرّات اصطفّ الأولاد في الحارة مثل ذلك، وأخذوا يبولون مع بعضهم صفًّا واحدًا بما يشبه المسابقة، ويتباهون من يستطيع أن يوصل بوله إلى النّقطة الأبعد من رفاقه، وتعجّب محمود كيف كانوا حينها قادرين على التحكّم برغباتهم في التّبويل، لمجرّد فتحهم سحّاب البنطلون، أو إنزاله إلى أسفل، وكأنّ المسألة حنفيّة ماء تفتحها وتغلقها متى تشاء.

كان الأولاد يرتجفون من الخوف، وكأنّهم في كوانين، وكان بعضهم يبكي ويولول، وينادي أمّه وأخواته أن ينقذوه، ولكن لا حياة لمن تنادي. الكبار جميعًا "متآمرون" في هذه "الملحمة" الّتي سيذهب ضحيّتها بضع مليمترات من أجساد هؤلاء الصّغار الأبرياء.

حاول محمود أن يهرب ثانية، لكنّ أخاه الأكبر عبد الله همس في أذنه:

- (ولك بهمّش، سمعت أمّي بتقول هيك أحسن للعروس).

- (ولك أيّا عروس، يلعن العروس على أمّها وأبوها).

وجاءت اللّحظة الحاسمة، وجاء دور محمود، وحاول الإفلات يائسًا من دون جدوى، ولمّا عرف أنه واقع تحت قبضة المقصّ لا محالة، هجم على يد المطهّر عضًّا ونهشًا في اللّحظة الّتي كان المقصّ قد نال مراده من الولد، ولكنّ العضّة المؤلمة جعلت يد المطهّر تنحرف قليلًا، فكان الجرح أكبر من المعتاد.

وخاف الولد وأبو عبد الله من كميّة الدّم الّتي نزفها، لكنّ المطهّر طمأنه قائلًا:

- (ولا تهتم، بكرة بتطيب لحالها من بوله).

وتمّ دفن جميع القلفات المقطوعة في مقبرة جماعيّة، حرص الأولاد على قراءة الفاتحة عليها في كلّ مرة كانوا يمرّون من مكان دفنها قرب زريبة دار "أبو عبد الله".

وأفاق محمود الكبش على ضربات أمّه على الباب وهي تصرخ:

- (ها يمّا يا محمود! أخذْتها؟).

ق

المصوّر

(1)

كان موت جدّي "أبو كامل"- رحمه الله- يمثّل نهاية حِقبة، كنتُ أرى في شخصه ما يشدّني إلى الماضي؛ ذلك البُعد الموغل في الأزليّة، حيث أستلهمُ لنفسي صور الحياة، كما أحبُّها أن تكون، صورًا مرهفة مضمّخةً بطيبٍ نبويّ، مشرقةً على برعمٍ ترعرعَ بعد الطّوفان.

أخذتُ آلة التّصوير، وذهبتُ إلى حاكورة المرحوم جدّي لالتقاط صورة تذكاريّة لتينَتِهِ المباركة، حيث كان من عادتِهِ أن يستحضرَ تحتها أرواحَ الشّهداء، ويشعلَ فيها لهب الذّكريات.

التقطتُ الصّورة بلذّةٍ وزهوٍ، موقنًا أنّها ستكون ذكرى خالدة لجدّي العزيز، ودخلتُ بها غرفة التّحميض، لأخرجها إلى الوجود.

هناكَ في المختبر، وفي لحظات فوق بنفسجيّة مؤثّرة، خرجت عيوني من محاجرها من فرط الدّهشة، فقد كان جدّي أبو كامل في المسوّدة، يجلس تحت التّينة الّتي صوّرتها قبل لحظات!

ما الذي يفعله جدّي هناك وقد مات من شهرين؟!

كان- رحمه الله- يجلس الجلسة نفسها التي اعتادها، يستحضر روح فارس العودة، ويمتطيها أسطورة للرّيح، ويدخّن سيجارته "العربيّة" بشغف وتأنٍّ، فيخرج دخانها مضمّخًا بطيبٍ نبويّ.

خرجتُ من انفعالات غرفة التّحميض إلى وعيي الكامل بحاكورة جدّي، لعلّي أحلّ مشكلة هذين العالمين

المتناقضين. هناك في الحاكورة وتحت التّينة تحديدًا، رأيتُ جدّي- رحمه الله- يجلس الجلسة نفسها التي اعتاد عليها، يستحضر فيها روح فارس العودة، ويمتطيها أسطورة تشقّ عباب الغيب، ويدخّن سيجارته نفسها من الصّنف "العربيّ" بتأنٍّ وشغف، فيخرج دخانها متضمّخًا بعطرٍ نبويّ عمره من عمر سيّدنا نوح عليه السّلام.

هربتُ مدهوشًا لا أجد تفسيرًا لما رأيتُ، وانتابتني حالات من الصّراخ والهلوسة والشّطح، حتّى خرج الأولاد إلى الحارة، وأطلّ الشّيوخ من شرفات المنازل، مستفسرين عن سبب صراخي.

واقتدتهم إلى تينة جدّي، والصّورة في يدي، وأنا أقصّ لهم سرّها، وسرّ الرّوح الّتي تظهر فيها.

هناك في الحاكورة لم يرَ أحدٌ من الّذين اصطفّوا حول الشّجرة أكثرَ من شجرة تين كبيرة عارية. قالوا لي: إنّك

تشطح، وهذه صورة قديمة التقطت عندما كان أبو كامل حيًّا يُرزق.

أثّرت هذه الحادثة في نفسي لشهور عديدة، قررتُ بعدها ترك مهنة التّصوير، فكان لي أن أصبحَ شاعرًا.

بعد أن كتبتُ قصيدة "المصوّر"، وهي قصيدتي الأولى، قرأتُها بيني وبين نفسي. بعد لحظات قليلة لم أندهش حينما اكتشفتُ أنّها قصّة قصيرة جدًّا.

ق

أوراق اللعب

(1)

أنـتَ تقـفُ عـلى الـشّاطئ. تنتظـرُ خـروجَ حوريّـة البحـر. أوراقُ اللّعـب في جيـبِ قميـصكَ المقـدود. عـلى الـشّجرةِ القريبةِ أوراقُ صحفٍ نفدَ تاريخُها. أبـراجُ الخريـفِ مـصابةٌ بالزّكام. يتوجّـعُ فيـكَ عِـرقٌ أندلـسيّ. تفترسُـك عـروقُ دمٍ أخضرَ لغولٍ متحضّر؛ غولٍ رهيبٍ جاءَ من الطّرفِ الآخر. وُلد يوم طردوكَ من غرناطة.

أنتَ تعبرُ بعد أن طالَ انتظاركَ. في الجامعـة مائـدةٌ ومناشـير بلاغيّة. الهزيمةُ تتحوّلُ إلى نصر. أنتَ تمتشقُ سيفَ طـارق. تـصدّقُ أنّ العنكبـوت حاملـةُ خيـول. الـصّهيلُ يتجمّـدُ في

حلق القادسيّة. على مرمى حجرٍ مقدسيّ وحجر أسود آلاف الشّهقات. جحافلُ الحجّاج يتوضّؤون بالدّم. بين الرّافدين بابلُ مدمّرة. الغول زادَ الميم في بداية اسمه فكانَ الموت.

أنتَ تقفُ على رِجل واحدة. كأبي قردان نحيفًا صامتًا. بلسانٍ مقطوعٍ. آلافُ الألسن تتكلّمُ بالنّيابة عنكَ. الضّاد فقدَ قلبه فصار الضِّدّ. أنتَ مُعاقَب.

أنتَ تحملُ الصّحيفةَ الملعونةَ. تقفُ على أعتابِ عمرو بن هند. الملكُ صريعُ أميرة زانية. تختمُ على معلّقاتِك بأنّها مُنتحَلة. تقترحُ عليك أن تكون مهرّجًا. تثورُ وتخرجُ. تحاصركَ الصّحارى. تصبحُ راعي جمال.

أنتَ الآنَ من ورق. تخرجُ أوراقُ اللّعب من جيبكَ. قميصك ملطّخ بدم ذئب، وممزّق بأظفار غانية فتكت بكَ. تمسكُ الورقة الأولى حتّى الأخيرة. الأوراق من ماركة

النّجوم. العرّاف الأعمى يزأر ويصاب بالصّرع. الكفّ تحوى آلاف الخطوط المنكسرة. الحبال طويلة ومتقنة لصنع الشِّباك. حوريّة البحر تخرجُ في الشّبكة. تقترح عليك أمنيات ثلاث، الأولى أن تتزوّجك. الثّانية أن تصبح حاكم الجزيرة. الثّالثة أن تدخلك إلى الجنّة.

تحقّقُ لها الأمنيةَ الأولى فتصبح مخصيًّا. الثّانيةَ تصبحُ عبدًا. الثّالثةَ تدخلُ وحيدًا إلى الجحيم.

ق

أبو السّعود

كنت قد التقيت بالشّاعر الشعبيّ "أبو غازي الأسديّ"- رحمه الله- في أحد الأعراس، وسمعته يغنّي:

شِعِرنا مِنْ وحي الأفكار إلهامْ ومنّو خَلَّد التّاريخْ إلهامْ

مِن جْراحِ الأرضْ بِنْشَقّ الهامّ بِنادي كلّ ما بقرَأْ بالكتابْ

وكنت قد سمعت عن طائر الصّدى، أو الهامّ وأسطورته المعروفة في الخروج من قبر القتيل الّذي لم يُؤخذ بثأره، صائحًا اسقوني، إلى أن يدرك الوليّ ثأره. لكنّني احترت، كيف أربط بين هذه الأسطورة وبين القراءة في الكتاب المذكور، وأيّ كتاب يقصد؟ هل هو الكتّاب المقدّس؟ أم غيره من الكتب؟ ولكي أقطع الشكّ باليقين، قرّرت أن

أسـأل الحـادي نفـسه في تفـسير هـذا البيـت مـن العتابـا. وشـاءت الـصّدف أن يكـون مقعـدي، عنـد تنـاول الغـداء، مقابلًا لمقعد الحادي "أبو غازي"، ولمّا سألته السّؤال ابتسم وقال:

– هذا البيت هو آخر ما قاله أخي المرحوم الشّاعر محمّد أبو السّعود، فقد لفظه ولفظ أنفاسه بعده، ولم يكن هناك مجال، لا للجواب ولا للسّؤال.

لم يشفِ هذا الجواب غليلي، وقرّرت أن أزور عائلة الـشّاعر الشعبيّ المعروف "أبـو الـسعود" في ديـر الأسـد، وأستفـسر عن الكتاب. لم يمضِ أسبوع حتّى حللت ضيفًا على القوم، وتعرّفت على أبنائهم الطيّبين، وشرحت لهم سبب الزّيـارة، وسألتهم عن الكتاب، فقالوا إنّ والـدهم المرحـوم اعتـاد في أوقات خلوته مع نفسه، أن يقـرأ في كتـاب قـديم، لم يـسمح لأحد منهم بالاطّلاع عليـه، وكـان يخفـي الكتـاب بـسرعة،

فيما لو دخل عليه أحد بصورة مفاجئة. وسألتهم ماذا وجدوا في الكتاب بعد موت والدهم، فأجابوا وعلامات الدّهشة على وجوههم أنّهم لا يعرفون؛ لأنّ الكتاب اختفى من المكتبة في اليوم نفسه، بدون أن يعلم أحد كيف تمّ ذلك.

عدت إلى البيت محتارًا ومندهشًا أشدّ الدّهشة، من هذه القصّة الغامضة، وفي داخلي فضول لرؤية ذلك الكتاب، ومعرفة السرّ الّذي يكمن فيه، وتمنّيت لو أنّ بمقدور الإنسان أن يسافر إلى العالم الآخر، حيث تجتمع الأرواح، عندها كان بالإمكان أن ألتقي الشّاعر أبا السّعود، فأتعرّف عليه وعلى كتابه الفريد، وأروي فضولي الجامح من ينابيع أسراره.

كان من عادتي أن أزور قريتي المنكوبة "البِرْوة"، وأجلس بين أكوام الحجارة، وأبكي زهرة شبابها، ونضارة وجهها

الّذي حفرته مخالب الذّئاب، وكنت دائمًا ما أكون وحدي، فيسرح بي الخيال، وأتذكّر قصّة "أبو السّعود" والكتاب. وفي أحد الأيّام، بينما كنت في طريقي إلى البروة، مخترقًا حواجز الشّوك والعوسج، ومتلمّسًا ما بقي من السّناسل، لفت انتباهي وجود كرم من العنب، لم أره من قبل، في كلّ المرّات السّابقة، وكأنّه نما في يوم وليلة.

كانت العناقيد خضراء ناضرة، تتدلّى كحبّات عقد من الزمرّد، حول عنق ملكة فرعونيّة. اشتهيت العنب، وكان أوار الحرّ قد بلغ منّي كلّ مبلغ، فما أراني إلّا وأنا أعصر عنقودًا، وأطفئ جمرة الظّمأ الملتهبة في أعماقي الحرّى. أحسست بالنّشاط يعود إلى روحي، ونعمت بلذّة سكرى، وتابعت سيري، كأنّي في حلم جميل. ابتدأت أذناي تتحسّسان أنغام قصيدة شروقيّة، لا أذكر أين سمعتها من قبل، رويدًا رويدًا ابتدأت الكلمات تبدو مألوفة، يا الله! إنّها

شروقيّة الشّاعر "أبو سعود الأسديّ" المشهورة في رثاء القرى المنكوبة، يا الله! إنّه صوت "أبو السّعود"، وكانت دهشتي في قمّتها؛ حين رأيت أبا السّعود يجلس أمامي، على كومة من الحجارة، يمسك كتابًا قديمًا في يديه، ويقرأ فيه مغنّيًا حاديًا.

كانت سعادتي برؤية الكتاب لا توصف، وقد شغلني ذلك عن التّفكير في كيفيّة رؤيتي لأبي السّعود، وقد مات من مدّة طويلة، ويبدو أنّه قرأ اللّهفة والشّوق في عينيّ، فابتسم قائلًا:

- أهذا ما تبحث عنه؟

قلتُ:

- أجل، إنّه الكتاب الّذي أبحث عنه.

وتناولته من يديه الكريمتين، وفتحت صفحة الغلاف، وقرأت "كتاب استحضار الأصوات".

في الحقيقة لم أفهم التّسمية، وأوصلني تداعي أفكاري إلى استحضار الأرواح، وظننت أنّ الأمر يتشابه، ورأيتني متسائلًا متعجّبًا: ما هذا الكتاب يا أبا السّعود؟

- إنّه كتاب سِحر. ما أن تقرأ فيه حتّى تستحضر صوتًا من الماضي، في الموضوع الّذي تحبّ، فتسمعه كما لو كنت معه في تلك الأيّام. إنّ الأصوات يا بنيّ تنطلق حرّة في الفضاء، بعد خروجها من الحناجر، فتختلط، وترحل، وتسافر، وتتشرّد، وما من طريقة تعيد سماعها من جديد إلّا في هذا الكتاب.

عندها تذكّرت ما تفعله آلة تسجيل الصّوت في التقاط الأصوات القريبة، وأيقنت أنّ اختراع جهاز مشابه لالتقاط الأصوات البعيدة أو الماضية؛ سيغيّر وجه التّاريخ. وأفقت من شرودي على يد أبي السّعود تهزّني من كتفي بلطف، وسألني: ماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف كيف احتُلّت البروة؟

- ما عليك إلّا أن تفتح الكتاب على حرف الباء، وتقرأ التّعليمات، وأوصيك بالكتاب خيرًا.

في تلك اللّحظة اختفى أبو السّعود، وكلماته تطنّ في أذنيّ كخليّة النّحل.

فتحت الكتاب على حرف الباء وقرأت: "البِروة مدينة الله في الأرض، لا لن تعرف سرّها إلّا من فم يوسف الصدّيق. اذهب إلى البئر، واستحلفه بالأيدي الّتي تقطّعت لجماله، أن يخرج الصّدى من بئره العميقة".

أغلقت الكتاب، وكنت أذكر من طفولتي الشقيّة بئرًا مهجورة في الجهة الغربيّة من القرية، اسمها "بئر يوسف"، فلعلّها هي المقصودة.

حضنت الكتاب وتوجّهت نحو الغرب، وفي الطّريق لفتت حاسّة الشمّ عندي رائحة خبز الطّابون، وتعجّبت من

وجود هذه الرّائحة في هذا المكان الخرب، رويدًا رويدًا بدأت الصّورة تتّضح، والطّابون يظهر بدخانه الأشعث، وكأنّه غيمة يطاردها عفريت، ثمّ خرجت منه بدويّة ترتدي السّواد، تحمل على رأسها طبقًا من الخبز، والغربان تحوم فوق رأسها. نظرتُ إليها بإشفاق، كيف تقدر أن تعيش في هذا المكان المهجور؟!

ونظرت إليّ نظرة إشفاق لم أفهمها، فتابعت سيري والحيرة في أمرها تعصرني عصرًا.

وصلتُ أخيرًا إلى البئر، ووقفت على خرزتها، ونظرت فيها، فكان فيها بقيّة من ماء، واستحلفت بالأيدي الّتي تقطّعت لجمال يوسف أن يخرج الصّدى من بئره العميقة.

قد تظنّون أنّي أحلم، أو أصابني مسّ من الجنون، ولكنّها الحقيقة يا أحبّائي، أجل إنّها الحقيقة. كان يوسف الصدّيق بجماله الملائكيّ يجلس في قاع البئر، وجهه هالةٌ من

الشّمس، والبخور يعبق من حوله، ولمّا سألته عن البروة، قال الصّدى:

"دخلها أسباطنا الاثنا عشر، ثمانية من اليمين، وأربعة من اليسار، دليلهم فرس أصيلة اسمها سراب، وكانت اللّيلة ليلة القدر، والقمر بدر، والنّجوم تترنّح في الكؤوس، والخيام تعجّ بالغريض، والذّئاب تنهش وتقول: يا لثارات كليب أمير العرب!".

في الحقيقة لم أذهل لهذا الكلام، وعرفت أن نبيّ الله قد صدقني القول، وأشفقت على دموعه الّتي انهمرت مثل سيل، وسمعته يقول: أيرضيك أن ترى نبيّ الله يقبع في هذه البئر المهجورة؟ آه منهم آه! أين أنت يا طرفة بن العبد؟!

رثيت لحاله، ورأيته ينظر إلى الكتاب ويقول: أعطني الكتاب، حتّى أسمع صوتك، مثلما سمعتَ صوتي.

واستحسنتُ الفكرة، ورأيتها مذهلة إلى حدّ الجنون، فلم أتردّد في إلقاء الكتاب إليه لحظة واحدة. وما أن فعلتها حتّى طنّت خليّة نحل في أذنيّ، وتذكّرت كلمات أبي السّعود "أوصيك بالكتاب خيرًا".

أخذ يوسف الكتاب، ولم يسمع صوتي، ولم أقل شيئًا، وسمعته يقرأ في سِفر الخروج، وبعد لحظات رأيت نفسي مقيّدًا على الصّليب، والغربان تحوم فوق جمجمتي قبالة "باب الأسباط"، والمدينة المقدّسة تحترق.

سبعة يدخلون من اليمين وستّة من اليسار، والآثم الجديد في المقدّمة، تسبقه سراب.

- آه يا "أبو السّعود" آه!!!

ق

مرثيّة لطيور النورس

كانَ عليه أن يسافرَ. الحقائبُ معدّة، وجواز السّفر جاهز. السّفر البحريّ منتظم بأوقات متقاربة. شعوره بالغربة رهيب. آخر ما أعطته أمّه كيس صغير، أشبه بصرّة قماش بالية. أوصته بالكيس خيرًا، وأعطته فطائر بالزّعتر وبعض الدّنانير. الميناء أشبه بيوم الحشر. المسافرون من مختلف الجنسيّات. الحقائب كبيرة على قدر الهموم. رائحة الشّتاء تفوح من اللّحى المرسلة التي لا وقت لحلقها.

كان لا يعرف وجهته تحديدًا. وماذا يهمّ ما دامت بلاد الله واسعة؟! غابات الأرز حالت بينه وبين أمّه. بعدت المسافات عن إشراقات عينيها، وتحولّت الدّنيا إلى غياب.

في الباخرة رائحة مجهولة. المسافرون ينظرون إليه بارتياب. هنالك حسناء ناعمة تنظر إلى عيونه الخضراء وبشرته السّمراء بإعجاب. وصفة بيولوجيّة نادرة لكنّها تبعث على الدّهشة. تحاول أن تقترب منه. الشّاب الأنيق الّذي يقف على السّطح ينظر إليه نظرة غريبة. عيونه الّتي تختفي خلف النظّارة السّوداء أشبه بلغز. الوجه الأمرد والشّعر الخفيف على الوجه يُذكّره بجاره الفرنسيّ "سيدوم" الّذي كان يسكن الشقّة المجاورة في فندق "بحيرة الملح". جاره الّذي لم يره مرّة واحدة لوحده، ودائمًا ما كان يراه بصحبة شباب خليجيّين مرحين.

الشّاب الأنيق كان ينظر إلى الفتاة نظرة غاضبة، ربّما كانت مجرّد نظرة استياء مجهول الدّافع. كانت محاولاتها في النّظر إلى الأسمر تتّخذ بُعدًا آخر. ربّما تجرّأت وقرّرت التعرّف إليه. بدأت تسأله عن وجهته، وعن حالة الطّقس، وعن

طيور النّورس التي تظلّل السّماء بالأبيض الفضيّ. كانت هذه المحاولات تجري بشكل خفيّ وهامس، وكأنّ الأمر مغازلة.

الأنيق يقترب من كليهما متظاهرًا بالنّظر إلى نوارس البحر. في كلّ مرّة يقترب فيها كان يفتح زرًا في قميصه الحريريّ المخطّط. تظهر من تحت القميص شطائر من الجبن البلديّ. الأنيق جميل. ربّما يصلح في الأزياء؛ الطّول، والعضلات، والمشية الاستعراضيّة. يمكن الافتراض أنّه بهذه البنية أحد أفراد الوحدات الخاصّة. لكنّ قسمات الوجه، وخفّة الدّم الّتي تبدو على وجهه حتّى في أشدّ ساعات الغضب والتوتّر؛ تنذر بحالة مستعصية من الضبابيّة في معرفة حقيقته.

كان عليه أن يسافرَ. ما زالت النّدوب في كتفه الأيسر بعد إصابته في المعركة الأخيرة. الجوع الشّديد المسبّب للصّداع

يمكـن معالجتـه بفطـيرة زعـتر واحـدة. لكـنّ قلقـه بـشأن المجهول الّذي ينتظره حالـة مزمنـة مـن الجـوع. كـان مرتابًـا جدًّا بشأن هذه الحسناء الّتي أخـذت تقـترب منـه. لم يخـف إعجابه بجمالها وهدوئها. كان فيها جانب من البراءة. ربّـما أدهشه قليلًا انشغالها الدّائم في مصّ إبهامهـا المحـلّى بخـاتم ثمين. لكنّه رآها فتاة عادية، لولا أن سألته عن أمّه.

هـو حـسّاس جـدًّا بالنـسبة لهـذا الـسّؤال. كانـت أمّـه دائـمًا موضع تساؤل كلّ تحقيق معه. كان ذلك يسرّه في الحقيقـة، وكان أيضًا يقلقه ويمدّه بعزيمة وثبات ويقين.

أترى تكون هذه الفتـاة جـاءت لتراقبـه؟ أتكـون هـي الفتـاة نفـسها الّتـي رآهـا تخـرج مـن سـيارة فـاخرة أمـام إحـدى السّفارات قبل أسبوعين؟

إذا كان ذلك صحيحًا فما معنى أن يسافر ويبدأ حياة جديدة في مكان آخر؟

الأنيق لا يبدو أنّه يعرفها، لكنّه دائم النّظر إليها، وكأنّه ينافسها على شيء. الفتاة لا تلتفت إلى جماله وأناقته. كان يغتاظ من تقاربها من الأسمر. وقد استغلّ فرصة اقترابه منها قرب الحاجز ليصدمها عن قصد. وما أن استفاقت من الصّدمة حتّى كان قد اختفى، ولم تدرك ممّا حدث غير كلمة آسف، قالها على عجل وبارتباك.

في اليوم التّالي، وعلى مائدة الإفطار في الباخرة، كان يشرب القهوة، ويطالع عناوين جريدة قديمة. مدينة تحت الحصار. انسحاب تكتيكيّ وليس هزيمة. مشروع إصلاح في دستور الجامعة العربيّة. مصادر غربيّة تتنبّأ بانهيار الاتّحاد السّوفيتي في غضون عامين.

اقتربت الفتاة بهدوئها المعتاد. استأذنته في الجلوس إلى الطاولة نفسها. لم يمانع. سألته: هل تدخّن؟

- أحيانًا، ولكن ليس في الصّباح.

وأخرجت سيجارًا ضخمًا من حقيبتها، وأخذت تدخّن باحتراف. تناولت فنجان القهوة خاصّته، وقالت له:

- لقد علّمتني أمّي قراءة الطّالع في فنجان القهوة، فهل تسمح؟

- آه طبعًا، تفضّلي.

ولم يكن يؤمن بهذه الخرافات. لكنّه الفضول. وسمعها تقول إنّ جدّتها كانت من الهنود الحمر، وقد اشتهروا بمهارة قراءة الطّالع.

- نعم، ماذا تقرئين؟

ولم يكن يعرف اسمها، ولم يرد ذلك.

- أمّك لا تزال على قيد الحياة، وستعيش طويلًا.

وابتسم في سرّه، وانتبه إلى دفّة الكلام.

- لقد أعطتك أمّك كيسًا صغيرًا يحميك من الأذى والسّحر.

وابتسم ولم يعلّق. لم يعجبها صمته. وبدأت تحدّق مشدوهة في الفنجان. وابتسم للمرّة الثّالثة وقال: لعلّك تشاهديننني ميْتًا.

- أجل.

وضحكت بصخب قائلة: إيّاكَ أن تصدّق هذه الخرافات.

الشّاب الأنيق يقترب منهما. يخرج علبة سجائر رفيعة فاخرة. يطلب من الأسمر عود ثقاب، وهو يعلم أنّ الفتاة هي الّتي تدخّن. الأسمر يعتذر، وتستدير الفتاة وتقدّم له القدّاحة. ولمّا التقت عيونهما اعتذر لها عن اصطدام الأمس ومضى.

قال لها: هل تعرفينه؟

- لا أعرفه. يبدو شابًّا غريب الأطوار، وخجولًا بعض الشّيء. كثيرًا ما أراه وحيدًا يتأمّل النّاس والبحر. ولا أدري لماذا يحدّق بي كثيرًا؟

- لعلّه يستلطفك.

- ربّما، لكنّي لا أحبّ الّذين أصلهم من الأوربيّين.

وشعر بأنّها تعرف عن الأنيق، مع أنّهما لم يجتمعا معًا في الباخرة. وأخذ يتذكّر فتاة السّفارة والشّاب ذي النظّارة السّوداء الّذي جلس بجانبها. هل هما عميلان يتعقّبانه؟

المساء ثقيل بارد، وكلّما تقدّم ازدادَ البرد. لم يمنعه ذلك من الخروج إلى السّطح ليستنشق الهواء الرّطب.

كانت الليلة مؤرقة له. انتابته هلوسات، وظنون، ومخاوف.

جهزّ بندقيّته "الكلاشينكوف" تحسبًّا للمخاطر.

تذكّر أمّه، فأمسكَ الكيس الصّغير، وضمّ حبّات التّراب الّتي في داخله بحنان غريب.

السّطح خالٍ من المسافرين. مَن المجنون الّذي يخرج من قمرته في مثل هذا البرد؟ هو وحده، وهو وحده الّذي ينسى، أيضًا، باب قمرته مفتوحًا. كانَ الأنيق في فراشِهِ.

وقويت العلاقة. وللغربة والسّفر شريعة.

السّاعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا. الحسناء تنظر إلى الأسمر بارتياب. في الليلة التالية عادَ إلى قمرته ليجدها في فراشِهِ. وقويت العلاقة. وللغربة والسّفر شريعة.

تمرّ الأيّام بسرعة. دوار البحر يفتك بالمسافرين. طيور النّورس تنشد لهم أغنية حزينة. يعود الأسمر الأخضر العينين إلى قمرته يومًا، ولا يجد الكيس الصغير.

بعد ساعات كانت طيور النّورس تنعاه، وتندب حظّه في الحياة.

الباخرة تستدير في عرض البحر معلنة العودة إلى الميناء.

ق

مَرْآفيا[1]

المكان يعني الوجود، ولهذا درستُ الجغرافيا. أنا لا أنكر أنّ لي، أيضًا، جغرافيا خاصّة تميّزني كأنثى. كلاهما يعني التّضاريس، والخصوبة، وصراع البقاء.

أصبحتُ معلّمة، وكنت إحدى القليلات اللّواتي تمّ تعيينهنّ. في البداية حاول المدير أن يخصّص لي حصص رياضة واحتراس طرق، لكنّني أصررتُ على تدريس اختصاصي، فوافق مضطرًّا وإن لم يخفِ امتعاضه واستياءه، وقال لي معاتبًا: أنتِ معلّمة جديدة، ويجدر بك قبول أيّ اقتراح. المعلم النّاجح يمكنه تدريس كلّ المواضيع. انظري

[1] نحت مبتكر من مَرأة وجغرافيا.

إلى العلماء من أجدادنا، فقد أحاطوا من كلّ علم بطرف، ولم تكن التخصّصات مهمّة عندهم.

ولم أعلّق على كلامه.

أحتاج إلى مجسّم للكرة الأرضيّة، وبعض الأفلام الوثائقيّة، وخرائط البلاد. أين المدير؟ المدير غير موجود!

سألت زملائي وزميلاتي عنه. قالوا إنّه يختفي في مثل هذه السّاعة كلّ يوم، يذوب في المدرسة، ولا أحد يعلم أين يكون. في اليوم التّالي التقيت به. سألته عن طلباتي، فقال: إن شاء الله سنطلبها لك من المجلس.

مرّ فصل دراسيّ كامل ولم يصل شيء. المفتّش يصل إلى المدرسة ويسأل عنّي. أعجب بتسريحتي والعطر الّذي أستخدمه. قال لي:

- أريد أن أحضر عندك الحصّة الخامسة. يجب أن أكتب تقريرًا من أجل التّثبيت.

- على الرّحب والسّعة.

وعلّمت الحصّة كما خطّطت لها. وجنّ جنون المفتّش: أين الوسائل التعليميّة؟ أين خرائط البلاد؟ ما هذا الخلط بين الجغرافيا والشِّعر؟ ما دخل التّاريخ بحصّة الجغرافيا؟

وحاولت عبثًا أن أفسّر له أنّ الجغرافيا تعني اللّغة والتّاريخ والتّراث. لكنّه أصرّ على موقفه. كتب التّقرير إلّا أنّه- وهنا يجب أن أتباهى قليلًا- كان للتّسريحة نصيب في صياغته بشكل متوازن.

أنا في هذه السّاعة أستريح. في هذا الفراغ اللّامتناهي أتأمّل.

أنا والمكان نتوحّد في لحظات نورانيّة. أسمع هدير مدافع القراصنة وهي تمزّق الجبال، وحوافر خيول الغزاة وهي تدنّس النّهر، فأحسّ بالبكارة تتمزّق. ومع كلّ دمعة ونقطة دم زكيّة، تبرعم في الأضرحة مواويل على بوّابة الشّمس،

وتنبعث من حداء رعاة الإبل، وهم يسبّون رعاة البقر، قوافل سحب تمطر في مواسم الجفاف.

رحلات إسراء ومعراج عبر طقوس زمكانيّة تحاول أن تلئم الجرح، وتصل بين جغرافيا الأرض وجغرافيا السّماء.

المدير في هذه السّاعة غائب عن المدرسة.

آذن المدرسة معجب أيضًا بالتّسريحة. تجرّأ، بعد أن تجاوزت الخمسين، أن يهمس لي بسرّ تملّقًا منه. قال: المدير يغيب في غرفة سريّة تحت غرفته. وأقسم أنّه لا أحد يعرف ذلك سواه. لم أتردّد لحظة واحدة، ونزلت الدّرج السريّ.

هناك في غرفة أشبه بغرف موتى قدماء المصريّين رائحة عفونة وموادّ تحنيط. الغرفة تكاد تكون بيضاء وكأنّها مدهونة حديثًا بطلاء أبيض، لكن يمكن بسهولة أن ترى آثار مآذن، وكنائس، وصبر، وسناسل تحت طبقة الدّهان. أمعنت النّظر جيّدًا. كانت دهشتي لا توصف؛ فقد كانت

جدران الغرفة هي الخرائط بحالها، وكأنّ جغرافيا الرّوح والجسد تجسّدت هنا في لحظة تجمّد فيها الزّمان.

المدير أضاء الشّمعة الثّامنة في الشّمعدان الموجود على الطّاولة. المغفور له يحاول جاهدًا بقلم التّوش الأزرق أن يرسم الخرائط من جديد.

بعد أن رسم المبكى، أخذت نقاط تنزل من وجهه. لا أعرف هل هي دموع أم قطرات من العرق؟

فجأة انتبه إلى روحي الحاضرة في هذا الطّقس. ارتبك، وابتسم ابتسامة لها أكثر من ألف معنى وقال لي: أنتِ معلّمة مخلصة، وأريد أن أعيّنك نائبة لي ، فما رأيك؟

لم أتردّد ثانية واحدة في الجواب، وأعلنت له الموافقة.

في صباح اليوم التّالي، وصلت الطلبيّة من المجلس.

ق

زهرة متوحّشة

زهـرة المتوحّـشة لقطـف زهـرة برّيّـة، تقفـز فـوق المـدى كفراشـات مـن نـوّار اللّـوز المتنـاثر عـلى السّفح. تحتبس في تلك الصّومعة ذكريـات طفولـة معذّبـة، تزمجـر فيهـا رائحـة العدم زمهريرًا يـصهل، قوافـل مـن خيـول كـوابيس كـانون تحتلم أحلامها اللوزيّة بعاطر النّدى الـشهيّ الـرّذاذ. يعـزّي يُتمها الكاهنُ الموغلُ في الغيب حيث يرتشف مدى ناظريـه ألق اشتياق السّماء لهمس راحتيه، وهما تتلوان سِفْر العذاب المـسافر في عتمـة الـرّوح. الرّحيـل الـسرمديّ إلى أحـلام النّجـوم وهـي تعـانق جـذوة الـبرق حـين تلتهـب مفاصـل الرّعد ترنيمة استسقاء للأرض الموات.

في الصّومعة لا مكان يتّسع رغبة الخروج من البئر العميقة، ولا أمل أن ترى غير النّقوش، والرّسومات الملائكيّة، وهالات النّور. في العتمة، هناك حيث يمتزج الرّعد بحنّاء الفاكهة الخفيّة، رغبات جنون والتهاب بدائيّ بريّ الأزهار عميقٌ سحيق. ها هي تقفز فوق الحواكير غزالة تشتمّ رائحة ربيع، تشتهي فيه صوت انطحان قرون الأيائل. تشتهي فيه مواء القطط في شباط، وهي تنشد من كاما سوطرا: "هي لذّتي في القصب طعمًا وملمسًا".

الاعتراف، يا ابنتي، انكتاب قصيدة. هو لغة تترجم لغة. ما الصّمت فوق حاجبيك سوى مشهد تراجيديّ كتبه سوفوكليس في أوديب.

أنا أبوكَ على اليتم، على الجوع، على الوحدة، على فقدان البصيرة. انتظريني ريثما أحضر الحملَ، فالرّاعية أوشكت أن تأتي في هذا الموسم.

أنا أتبعه أينما كانَ. أنا ظلّه. مسكين إذا ظنّ بي الظّنون. هو كاهن الغيب، كلّ غيب سواي. أنا أبحث عن الدّليل في عقبه. لا يمكن للصّحراء ألّا تشتاق للمطر. الجدب كُفرٌ. والصّومعةُ تشهدُ على انفصام حتميّ. فكما أنا كذا سيكون. يقبلُ القطيعُ، والنّواقيسُ تنشدُ عذاباته الممتزجة بأنين ناي الرّاعية السّمراء. الغروب يوشك أن يحتفلَ بعشقهِ للهفة الشّفق. الكاهن يخلع العباءة القديمة. الرّاعية تعزف على نايه بأصابع عمياء لكنّها مبصرة. تمتلئ رئتاها بشهقة العطر الكستنائيّ. يردّد الصّدى سيمفونيّة الالتحام الإنساهيمي[2]:

ماع ماع . آه آه. حِم حِم هِم هِم. آه آه. آه آه.

من لي بذئب يعلمّني هذه الأبجديّة المحمومة؟

لا يمكن للصّحراء ألّا تشتاق للمطر، الجدبُ كفرٌ.

والصّومعةُ تشهد على انفصامٍ حتميّ. فكما هو كذا سأكون.

---

[2] نحت مبتكر من الإنسانيّ- البهيميّ.

وحينما عادَ، لم يكن كاهنًا كما في المرّات السّابقة. عادَ صيّادًا يطارد زغلولي حجلٍ كبراعم الثّلج. عادَ ذئبًا يعلّمني أبجديّته المحمومة!

ق

غَيْبَة الغنَمَة

يُحكى أنَّ قرية آمنة كان يأتيها رزقُها رغدًا، وكانَتْ تملك غنمة كبيرة جدًّا، يمتَدّ طولها مِنْ بداية القرية إلى آخِرها، أمّا رأسها فيَصِل إلى الغيوم.

كانَتْ تأتي كلّ صباح مِنْ أعلى الجبل القريب، وتدخل القرية، تُرافقها جَوْقَة مِنْ أَعراس طيور الفجر، فتستقبِلها القرية استقبال الملوك الفاتحين.

وكان في القرية ولَد في الصفّ الأوّل اسمه نجيب، أعجَز المعلّمين في المدرسة وهوَ يسأل عَنْ هذه الغنمة العجيبة الّتي إذا حرَّك قرناها الغيم نزل المطر، وكان جميع سكّان القرية يجتمعون تحتها قُبيلَ المساء، يَحمل كلّ منْهُم دلْوًا أو

قِـدْرا، ويحلبونهـا إلى أن تمتلِـئ الـدِّلاء والقُـدور، دون أن يَنقص مِنْ حليبها شيء.

فكّر نجيب يومًا، وتعجّب مُتسائلًا: تُرى أيـن تـذهب هـذه الغنمة العملاقة بعد المساء؟ وأيّ مكان يتَّسع ليكون زريبـة لها؟

ثمّ خطرت له فكرة؛ ماذا يحدث لو تتبَّع الغنمـة خِفيـة بعـد المساء، واكتشف السرّ بنفسه؟

وفي مـساء قـرنفليّ النّـسمات، سـكّاب لخـوابي النّـور، تبـع نجيب الغنمة، على الرّغم من تحذيرات والدَيْه الدّائمة بـألّا يتـأخّر بعـد الغـروب. لَمْ تعـرف الغنمـة العملاقـة أنَّ نجيبًـا الصّغير يتبعها. استمرّت في المسير بخفّـة صـيّاد يطـارد رفًّـا من الحجل، حتى وصـلتْ إلى الـسّهل القريـب مِـنَ الجبـل، حيـث تمتـدّ شـجرة خـضراء كبـيرة، ثـمَّ مـدَّتْ رأسـها نحـو الأغصان وتناوَلت ورقـة مِـنْ أوراقهـا العريـضة الخـضراء،

ومضَغَتْها بنشوَة الصّوفِيّ العاشق، وكَمْ كانت دهشة نجيب كبيرة حين رأى عشر ورقات خُضر نبتت مكان الورقة المأكولة! حفرت الغنمة الأرض بِحافرها، فانفجر نبع مِنَ الماء، يتدفّق كنافورة، شربَتْ حتّى ارتوَتْ، اختفى النّبع، وتابعتْ سيرها، ونجيب مشدود بخيوط الدّهشة!!!

اِقترَب الصّغير مِنْ مكان النّبع وتذوَّق ما بقِيَ مِنْ قطرات الماء العالقة على العشب الأخضر، فكان طعمها كالعسَل، ودفعه حبّ الاستطلاع الطّاغي في مثل هذا الجيل لأنْ يمضَغ ورقة مِنْ أوراق الشّجرة، فكانَ طعمها يُشبه طعم (كوز) الصّبر في عزّ الصّيف، وكَمْ كانتْ دهشة الصّغير كبيرة حين نبتَتْ مكان الورقة عشر ورقات خُضر!

اِبتدأَت الغنمة بتسلّق الجبل، ونجيب يقتفي أثَرها، وقلبه يتأرجح مِنْ هوْل ما رأى، ثمَّ عقدت الدّهشة حاجبيْه؛ فقد رأى أنَّ الغنمة قد أخذ حجمها يتقلّص، ويصغر رُويدًا

رُويـدًا كلّـما ارتفعَـتْ إلى أعـلى الجبـل، ومـا أن وصـلَتْ إلى القمّة حتّى صارَتْ بحجم الغنمة العاديّة.

هنـاكَ في أعـلى الجبـل كـوخ صـغير، يجلـس عـلى بابـه شـيخ عجوز، يحمل سُبحة طويلـة، اختفـى جُـزء منْهـا وراء لِحيـة ناصـعة البيـاض، هـاجرَتْ في الله مـا يزيـد عـلى قَـرن مِـنَ الزّمان، وبيده كتاب قديم يقرَأ فيـه، ويبـدو أنَّ الـشّيخ كـانَ غافِيًا بسبب نسمات المساء النّاعسة.

اِقتربـت الغنمـة مِـنَ الكتـاب، وأخَـذتْ تـتقلَّص وتـتقلَّص حتّـى صـارَتْ بحجـم النّقطـة. قفـزَت النّقطـة إلى الكتـاب، واختفَتْ بين حروفه. اِقترب نجيب الّـذي لَمْ يـتعلَّمْ بعـد في الصفّ الأوّل سوى نصف الحروف الهجائيّة، أو أكثـر منْهـا بقليل، وحاول أن يقرأ ما كُتِبَ على الـصّفحة الّتـي اختفَـتْ فيها الغنمة، واستطاع أن يقـرأ :"يُحكـى أنّ قريـة آمنـة كـانَ يأتيها رزقها رغدًا، وكانَتْ تَملِك غنمة...".

لَمْ يفهم الصّغير هذه الكلمات، وخاف أن يتأخَّر عَنْ والديْه بعد أن خيّم الظّلام، فعاد مُهرولًا إلى البيت، يَسبقه قلبه المضطرب الخائف، وأنفاسه المتصاعدة اللّاهثة.

هناك، في البيت، قصّ نجيب على والديْه قصّته المثيرة، وكشَف لهما سِرَّ الغنمة، ذلك السرَّ الذي لَمْ يَعُدْ سِرًّا.

في الصّباح كانت الشّمس شاحبة والقرية مضطربة مُترَقِّبة، تنتظر بفارغ الصّبر قدوم الغنمة الّتي تتأخّر، ولأوَّل مرّة، عَنْ موعد قدومها. اِنتظرت القرية طويلًا. مرّت الثّواني والدّقائق كأنّها أعوام، ولَمْ تأت الغنمة. ومرَّتْ قُرون وعصور، والقرية ما زالَتْ تنتظر!

أمّا نجيب فقد أمسى شيخًا عجوزًا، وكان يشعر شعورًا غريبًا كلّما نظَر في القرآن وقرأَ سورة النّحل، أو تذوَّق طعْم العسل.

ق

شجرة الغار

كان سالم يحبّ أشجار الغار، كم تمنّى أن تكون في الحديقة العامّة للبلديّة شجرة باسقة ظليلة مثلها. إنّها ستكون ظلًّا لآلاف المتنزّهين الّذين يؤمّون المتنزّه كلّ يوم، إنّها تذكّره بأكاليل النّصر الّتي كانت تصنع من أغصانها.

لم يتردّد كثيرًا وذهب إلى مشتلة لبيع أغراس الغار. استقبله صاحب المشتلة، ورحّب بالفكرة، لكنّه سأل سالمًا:

- هل أنت مزارع؟

- لا، وهل هناك ضرورة لأكون مزارعًا من أجل أن أغرس شجرة غار؟!

- ليس بالضّرورة أن تكون مزارعًا بكلّ معنى الكلمة، لكن ينبغي أن تكون لديك بعض خبرات المزارعين وكفاءاتهم، وتمتلك بعض المعلومات عن شجر الغار، حتّى تستطيع زراعتها بالشّكل الصّحيح، ومعرفة أوقات ريّها وكميّة الماء اللّازمة. يا بنيّ لا تكفي النيّة الحسنة لعمل الخير، يجب أن تكون لديك الخبرة الكافية لإتقانه، فالحياة تحتاج إلى مهنيّة وكفاءات.

وعلّمه صاحب المشتلة ما رآه مناسبًا لإتمام العمل وزراعة الغرسة.

توجّه سالم إلى الحديقة العامّة لزراعة الغرسة وهو مسرور.

استوقفه حارس الحديقة العامّة:

- إلى أين تذهب يا أخي؟

- أريد أن أغرس شجيرة غار في الحديقة العامّة.

- وهل معك تصريح من البلديّة بذلك؟

- يـا الله، هـل زراعـة شـجرة في حديقـة عامّـة تحتـاج إلى ترخيص؟

- طبعًا يا أخي. زراعتها تحتاج إلى ترخيص، وقلعها يحتاج إلى تـرخيص. فـالأمر يحتـاج عـلى الأقـل إلى تنـسيق. فَهُـم سيخبرونك على أقلّ تقدير عن المكـان المناسـب لزراعتهـا. لديهم خبير زراعيّ وخبير هندسة وبإمكانك الاستفادة من تجربتهما. ينبغي على البلديّة، على الأقلّ، معرفـة اسـم فاعـل الخير الّذي يريد أن يقـوم بعمـل مـن هـذا النّـوع لتكافئـه أو ربّما للاستفادة من نواياه الخيريّة في مشاريع من هذا النّـوع. أرأيت يا أخي كم يحتـاج الأمـر إلى تنـسيق، وعمـل مـشترك مبنيّ على التعاون؟

ابتـسم سـالم، وأدرك أنّ هـذا الأمـر فاتـه فعـلًا، فـلا تكفـي النّوايا الصادقة، ولا التوجّـه الاعتبـاطيّ. يحتـاج العمـل إلى دراسة وتخطيط. لا يكفي أن تنظـر إلى الموضـوع مـن زاويـة

واحدة، عليك أن تفكّر بكلّ الاتّجاهات؛ كيف تخطّط، وكيف تنفّذ، وكيف تضع هدفًا من أجل ذلك.

وذهب إلى البلديّة، وفي الطّريق كان يزن كلماته الّتي ينوي أن يقولها للمسؤولين لإقناعهم بضرورة ما ينوي فعله، فهنالك ضرورة لأن تكون لغة اتّصال جيّدة بينه وبينهم. وكان يبني توقّعاته من احتمالات رفض طلبه، وكيف سيجيب ويتمسّك بفكرته الّتي آمن بها واعتبرها عملًا صالحًا يفيد به الصّالح العامّ.

وفي البلديّة لقي معارضة عندما وصل، إذ كان من الصّعب على المسؤولين قبول فكرة قدوم طرف خارجيّ باقتراح تقوم البلديّة بتبنّيه. وكان المهندس على رأس المعارضين:

- هنالك يا أخي العديد من الأشجار وارفة الظّلّ في الحديقة، ولا داعي لغرس أشجار جديدة.

فأجابه سالم:

- هذا صحيح، لكن شجر الغار يعطي ظلًّا كبيرًا والحديقة ليس فيها شجرة غار واحدة، وهذه فرصة لغرس هذا الصّنف من الأشجار وتعريف النّاس به.

- لكنّني لا أظنّ أنه يوجد مكان في الحديقة لغرس شجيرة الغار.

وهنا ابتسم سالم الّذي كان مستعدًا للجواب فقال:

- لقد تيقّنت من هذا الموضوع بنفسي قبل أن أحضر إلى هنا. هنالك مكان مناسب في الحديقة لغرس الشجيرة.

واصطحب سالم المهندسَ إلى الحديقة، حيث تمّ معاينة مكان الغرس. استطاع سالم تجنيد البلديّة، واستعان بخبرائها وتمّ زرع شجرة الغار.

كان سالم كثيرًا ما يأتي إليها يتابعها بنفسه، وأحيانًا كان يتابعها عمّال البلديّة، وفي بعض الأحيان كان أولاد سالم يأتون إلى الحديقة العامّة مع أبيهم للتنزّه، وكان سالم يحكي

لهم قصّة هذه الغرسة من البداية حتّى النّهاية. وكان يقول لأحد أبنائه الّذي أحبّ أن يكون معلّمًا:

- يا بني ما حدث معي شبيه بوظيفة المعلّم؛ فهو يتعلّم في الكليّة أو الجامعة، ويتمّ تعيينه كمعلّم في مدرسة. عليه أن يدرس عمله القادم قبل أن يباشر به. معرفة المدرسة، مديرها ومعلّميها، أنظمتها، أنظمة الوزارة، التعرّف على الطلّاب والأهالي. كل هذا يلزمه من أجل التّخطيط المناسب، فهو سرّ النّجاح.

في صباح يوم ما، تجمّع عمّال البلديّة مندهشين لشجيرة الغار الّتي تمّ قلعها بقسوة وبشكل مفاجئ، وسرعان ما حضرت الشّرطة ومسؤول من دائرة أراضي الدّولة، وتمّ اعتقال سالم لضلوعه في مسألة أمنيّة!

ق

أبو السّعود يعود

ليسَ من عادتي إعادة النّظر فيما كتبت من قصص، لكنّ قصة "المصوّر" استهوت فيّ جموحًا فلسفيًّا خاصًّا؛ فقد قررتُ ككاتب أن أحاول معرفة مصير المصوّر بعدَ أن حظي بصورة "أبي كامل" السحريّة، وأسبر غور هذا الشّخص الّذي ما أنهيتُ دوره في تلك القصة، حتّى استبدّت بي الرّغبة القاتلة إلحاحًا في أن أعاود إحياءه في نصّ جديد. وقد تبدو محاولة التقاء الكاتب مع شخصيّة من شخصيّات قصصه ضربًا من العبث، خاصّة إذا كانت بعيدة عن الواقع، وجاءت وليدة واقع آخر قد لا يمتّ إلى واقعنا بصِلة. السّؤال هو: هل فعلًا شخصيّة المصوّر الّذي

أصبحَ شاعرًا، ثمّ اكتشف أنّه قاصّ لها علاقة بي ككاتب عملَ في التّصوير زمنًا، ثمّ مارس الشّعر وكتابة القصّة؟

والسّؤال الأهمّ هو: هل أنا كراوٍ يروي أحداث هذه القصّة، بضمير المتكلّم، هو الكاتب نفسه؟

يبدو أنّ محاولتي الأخيرة لقراءة القصّة القصيدة إيّاها، جعلت منّي قارئًا وناقدًا في آن، وإلّا فما بالي أخلط بين هذه الألوان الأدبيّة، وأكتب نقدًا حول فنّ كتابة القصّة، وعلاقة الكاتب بشخصيّاته، وعلاقته براوي أحداث قصّة كتبها، أو ينوي أن يكتبها.

بدون طول سيرة، التقيت بالمصوّر في مكتب إحدى الجرائد المحلّيّة التي يعمل لحسابها. كانَ محبطًا بعض الشّيء. حييته وسألته: هل ما زلت ترى "أبا كامل"؟

قال: لقد عادَ أبو كامل إلى عالمنا منذ قامت السّلطات بمصادرة رخصة التّصوير الّتي أملكها. وعلى الرّغم من أنّ

النّاس لا يرونه، لكنّه يرى النّاس، ويعتقد أنّه سيأتي يوم ويرونه رأي العين، مثلما يرونه اليوم في خيالهم.

- لكنّك قلت إنك تراه بعينيك هاتين؟

- هذا صحيح. ولكن لكلٍّ حقيقته في هذا الكون. العالم أشبه بفيلم "رشومون" أو ما يسمّيه اليابانيّون "باب الأرواح الطّيبة". ومن هذا الباب يدخل أبو كامل إلى تصوّراتنا وصورنا، وبالمنطق نفسه يجب أن نفهمه، ونقرّ بحقيقة وجوده.

- أما زلت تكتب الشّعر والقصّة القصيرة؟

- أنا أفعل ذلك من خلال التّصوير؛ فالكاميرا كالقصّة والقصيدة تجسّد لحظة تاريخيّة في مسار الزّمن، وتحنّطها كما فعل المصريّون القدماء.

- هل تلمّح إلى أنّ ما تفعله عمل مقدّس؟

- لا يهمّ إذا كان مقدّسًا، لكنّه يحمل رسالة.

وافترقنا، هو استمرّ يصوّر بدون رخصة، وأنا استمررتُ أكتب بدون هدف. ثم جاءت الأحداث العصيبة في تشرين، واستشهد من استشهد من أبنائنا الأبرار؛ ثلاثة عشر كوكبًا كما أرادهم يوسف.

كان صديقي الشّاعر يعقوب أحمد من كفرمندا، قد أجريت له عمليّة جراحيّة في القلب، ومن قبل ذلك توفّي والده، ولم أذهب لتعزيته في حينه، إذ عرفت ذلك متأخّرًا، لذا كانت زيارتي ضروريّة وتدخل ضمن الأصول والواجب.

امتطيت السيارة وسافرت بعد صلاة المغرب إلى كفر مندا.

في الطّريق أصابتني هلوسات حول ما دار بيني والمصوّر، وتخيلتُ أنه إمّا كاذب أو مجنون، لكنّي بعد ذلك ندمت على هاتين الفكرتين.

في مدخل كفر مندا، أقام المجلس المحليّ نصبًا تذكاريًّا للشّهيد رامز بشناق، وكنت أوّل مرّة أشاهد هذا النّصب.

وجدت نفسي أنزل من السيّارة، وأقترب من المكان. لفت انتباهي رجل درويش يجلس على قطعة العشب الّتي تمتدّ أمام النّصب. اقتربت منه وحييته، وكانت المفاجأة!

لم يكن الرّجل سوى "أبو السّعود" الشّاعر الشعبيّ. كنّا التقينا في القصّة المسمّاة على اسمه، على أنقاض "البروة"، وجرى ما جرى بيننا حول الكتاب اللّغز "استحضار الأصوات". وابتدأت أسترجع ما قاله المصوّر عن "أبو كامل"، وأطبّق كلامه على حالتي مع "أبو السّعود".

كنتُ أخشى أن يعاتبني أبو السّعود على ضياع الكتاب في بئر يوسف، لكنّه ابتسم وقال:

- التّراب رطب في كفر منذا وأرجوانيّ، كأنّه "دعسة بنت النّبي".

- ما هذا الّذي تحمله يا أبا السّعود؟

- هذه قصيدة رثاء بعنوان "أنا يوسف يا أبي".

- هذه قصيدة لمحمود درويش.

- كلّنا نشرب من البئر نفسها.

- لكن يوسف يا عمّ استولى على البئر والكتاب معًا.

- هذا يوسف آخر، يوسف جديد.

- أنا في حيرة ، ولكن.. ماذا تفعل أنت هنا؟

- أنا عائد إلى هنا، وهنا يعني هناك.

- والعالم الآخر والحدود؟

- العالم هو العالم؟

- والحدود؟

- الحدود فيلم سينما يا ابني.

واختفى وهو يقول: أقرئ أباه السّلام.

ووسط الدهشة ودقّات القلب المتصاعدة، ركبت السيّارة، أجرّ قدميّ جرًّا، ولمّا وصلت إلى بيت صديقي يعقوب، تذكّرت أنّ يعقوب والد يوسف، فاستغربت من هذه

المصادفة. أمّا الّذي عقد لساني، لدرجة أنّني لم أعد أفهم ما يحدث في هذه الدّنيا، وليشفع لي المصوّر، عندما أهداني يعقوب مجموعته الشّعرية الجديدة " أنا رامز يا أبي".

ق

المَرأة الّتي تَلِد الخِراف

قابيل يقتتِل مع هابيل!

على امتداد كُروم التّين والزّيتون، وقُرب بقايا دموع المطر في الغدران؛ كانَتْ خراف أُمّ إبراهيم ترعى، وتهمس لشقائق النّعمان بملحمة خالدة.

أكاد أُجَنّ مِمّا يقوله هؤلاء النّاس السّاذجون، كيف يُمكِن لامرأة عجوز مثل أُمّ إبراهيم أن تلِد الخراف؟!

وكانَ جوابهم: يا مسكين! أنت لا تعرف شيئًا. هذه العجوز هي أُمّ هذه الخراف جميعًا، واستشهاد زوجها السّابق "أبو إبراهيم" حينَما عبر النّهر؛ لم يمنَعْها مِنَ الزّواج بغيره، والتّبرُّك بولادة هذا القطيع الكبير مِنَ الخراف.

كانَتْ هذه الكلمات بالنّسبة لي أُسطورة، أو رموزًا في الخطّ الهيروغليفيّ القديم. تُرى كيف لي أن أفهم هذه الكلمات بدون الإِستعانة بلسان العرب؟

وقرَّرْتُ يومًا أن أتسلّق قمّة الكرمل، وأُراقب أُمّ إبراهيم وخرافها عنْ قرب. رأيْتها تجلس تحت ظلّ سنديانة عتيقة، عجوزًا تكاد جدائل شَعرها النّاصع البياض تصِل أسفل الجبل، وعلى صدرها حمل أبيض يتقلّب بين يديها بحُبّ وحنان. كانَت الخراف تسرَح وتمرَح بينَ يديْها، نشوى، ترقص طربًا، وتقفز كقطيع مِنَ العفاريت المجنونة.

في يوم مِنَ الأيّام، وفي لحظة تبدُّل الفصول، بدأت الرّعود تقصف، والصّواعق تنقضّ، والهلع يفتك بالخراف.

اِرتعش فؤاد أُمّ إبراهيم وقالَتْ:

- لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله.

وكشفَتْ عنْ أظفار كمخالب الصّقر، ولـمّا أتَـت الـصّاعقة الذِّئبيّة على الحمَل الوديع؛ نزلَتْ مِنْ عينيها دمعة، فامتلأت الغدران.

اِحترق الحمل وصعد إلى السّماء، فاحتضنَهُ النبيّ وقبّله.

كانَتْ دهشتي كبيرةً حينَما اختفَت التّجاعيد مِنْ وجه أُمّ إبراهيم، تخضّب بياض شَعرها بالسّواد، رأيْتُها تجلس تحت ظلّ سنديانة عتيقة، شابّة تكاد جدائل شَعرها الأسود الفاحم تصِل أسفل الجبل، وعلى صدرها حمل أبيض يتقلّب بينَ يديها بحُبّ وحنان. كانَت الخراف تسرَح وتمرَح بينَ يديْها، نشوى، ترقص طربًا، وتقفز كقطيع مِنَ العفاريت المجنونة.

حينَ نزلتُ عن الجبل، كانَ قابيل قد قتل هابيل!

ق

طفلٌ من هناك

كانَ الهدَف مِنْ ذَهابها إلى مدينة "جنين" مُزدوَجًا، تنفيذ حملة مِنَ المشتَريات الرّخيصة، فالأسعار هُناك تَكاد تكون مجّانيّة، والسُّكّان يحتاجون مَنْ يَدْعم مَنْتوجاتهم؛ والهدف الثّاني وَضْع بالة مِنَ الملابس الّتي صَغُرَتْ على مقاس ابنها، في باحةِ الجامع الكبير، تبرّعًا لمنْ يَحتاجها.

وقضيّة الملابِس الّتي تَصغُر على مَقاس زياد أَضْحَتْ مُتكرّرَة كلّ عام، فهوَ ما شاء الله، يسمَن بسُرعة، ولا يكاد يَترك صِنْفًا مِنَ الرَّقائق والأَغذية المصنّعة والسّريعة إلّا وَيلتهمه التهامًا، ولم تُفلِحْ كلّ نصائحها في رَدْعه عَنْ ذَوْقه في الطّعام كمًّا وكَيْفًا.

كانَ، حَفِظه الله، يَبتسِم وهوَ يأكل، وكانَ يَقول لَها إنّه يُحِبّ أَنْ يَأْكل وهوَ مَبسوط.

كانَ يَكره الخُضار والأَطعمَة النباتيّة، ولكِنَّ الملوخيّة تحديدًا كانَتْ أَكْلَة يُحبّها كثيرًا، كانَ يُقدِّم لوالدته درسًا في الإِشتقاق اللغويّ، فيُفَسِّر لها أَنَّ كلمة "مُلوخيّة" معناها "مُلوكيّة"، وأَنَّها أَكلة الملوك المفضّلة.

كانَتْ تَبتسِم وتقول له: تَقصد أَنَّك سَتصير مَلِك الطّعام؟

فَيَرُدّ عليها بابتسامة أَكبَر: سَتكونين المِلكَة يا أُمّي!

قاتَلَ الله الملوخيّة، كانَت السبَب الّذي جَعَل سيّارَتها تَنحَرف عَن الرّصيف في مَدخَل قرية "صندلَة"، المشهورةِ بزراعةِ الملوخيّةِ، حيثُ لا رصيف ولا مجال هناك للوقوف، ما تسبَّب في انقلاب السيّارة في الواد المحاذي للشّارع، على الجانِب الّذي يجلِس فيه زياد، والتسبّب بحادث طُرُق كادَ أَنْ يكون ضحيَّته، لكِنَّ الله لطيف بعباده، فنَجا الولَد

بأُعجوبة، وقَد أُصيب بِرُضوض في الظّهْر وكَسْر كبير في السّاق.

بقي زياد في البيت مدّة شهْر لا يَقْوى على الذّهاب إلى المدرسَة، حتّى فُكّتْ جبيرة ساقه المكسورة، عاد بعدها إلى المدرسَة مُشتاقًا لزملائه ومُعلّميه. أَمّا مُدّة بقائه في البيت فقَدْ قضاها في الدّراسة وقراءة القصص المميّزَة الّتي اعتادَتْ والدته اقتناءها مِنْ مكتبة "عُصفور" في مدينة "جنين".

كانَتْ تسأَله في كُلّ مرّة يقرأ فيها: ماذا تقرأ يا زياد؟

فيُجيبها ضاحِكًا:

- أقرَأ "عصفورًا" مِنْ عصافيرك حتّى أُصبح عُصفورًا.

فتَرُدّ عليه ضاحكة:

- لَنْ تطير بهذه الجبيرة على ساقك، وحتّى لو طِرْت قليلًا فلنْ تَقدر على حَمْل وَزْنِك يا ماحق الطّعام اللّذيذ!

بعد يوم حافِل لها في المدرسَة، حيث تُدَرِّس موضوع التّاريخ، خَرَجَتْ مُتعَبَة مُرهَقَة.

دَخَلَتْ سيّارَتها، أَدارَت المِفتاح وشَغَّلَت المُكيِّف بِسُرعة لِتطْرُد البخار المتكاثِف على الزّجاج بالهواء السّاخن، فيزيده سخونة لهيب كلمات المذيع وهوَ يُعلِن عَنْ غارة جويَّة في المخيَّم، وإِصابة طفلة عُمْرها شَهْر في سريرها.

تحرَّكَت المرْكَبة بِاتّجاه المنطقة الصناعيَّة. أَبْطَأَتْ سُرْعَتها وهي تتَحاشى الانزِلاق في الحُفَر الّتي سبَّبها مطَر الصّباح. إِشارَة المرور مُضاءة بِاللّوْن الأَحمر، ما اضطُرّها إِلى التّوَقُّف على المفرَق، واستطاعَتْ على الرَّغْم من الضّباب أَنْ ترى يده النّحيفة السّمراء، وهي تَخْرج مِنْ كُمّ رقيق لا يَقْوى على احتمال لَسْعة البَرْد.

مسحت اليد الزّجاج، وعلى الرغم من تحوُّل الضّوء إِلى الأَخضر، وصفير السيّارات، وما التقَطَتْه أُذناها مِنْ غُبار

شـتائم الـسّائقين، اسـتطاعَتْ أَنْ تُلْقـم الأَصـابع المتـشقِّقة الجائعـة قطعـة معدنيَّـة. بعـدَ أُسـبوع، وفي المكـانِ ذاتـه، اسـتطاعَتْ أَنْ تـرى وجْهـه بوضـوح. صَـبيّ في العـاشرة تقريبًا، ومِنَ الكُـمّ الرقيـق نفسه، خرجَـت الأَصـابع ذاتهـا، ومسحَتْ زجاج السيّارة مِنْ غُبار الطّريق القَـرَوِيّ الغـارق في التّراب والحُفَر، الّذي تمرّ به أثناء عودتها مِنَ المدرسة، إِلى بيتها في الحيّ الشرقيّ مِنَ المدينة.

سأَلَتْه: لِماذا لا تتعلّم في المدرسة مثل أَتْرابك؟

أَجابَها وهُو يتناول قطعـة معدنيَّـة مِـنْ شَـقّ زُجـاج النافـذة: لقَـدْ هُـدِمَت المدرسـة أَثنـاء القَـصْفِ. أَنـا لـسْت مِـنْ هنـا.

ومسَحَتْ زُجاج نظّارَتها مِنَ الغُبار، ودمعةً سالَتْ.

بعدَ أُسبوع، وعـلى مُفـترَق آخَـر مِـنَ الطُّرُقـات، رأَتْـه يأْكـل ويُـدخِّن. كـان يَـسْعَل بـشدّة، مزْكومًـا، يمسَح أَنْفـه بِـالكُمّ الرّقيق ذاته. عندَما رآها تقترِب مِنَ المفرق، اتّجه نحو زُجاج

النّافذة، فناوَلَتْه القطعة المعدنيَّة من دون أَنْ تنتظِر منْه مَسْح الزُّجاج، وقالَتْ له: لدَيّ في الحديقة عمَل خفيف لك، وسوف أُكافِئك بأَجْر مُناسِب.

واتَّفَقا على الزّمان ووصَفَتْ له المكان، فحضَر قبل الوقت المحدّد بساعة، وصبر على وخَزات البرد، ولمّا حان وقت العمل، اشتغل بعزم ابن العشرين. ناولَتْه خمسين شاقلًا مُقابِل ساعتَيْن مِن العمَل، وقصَّة بعنوان "مِنْ بَلَدي"، وقميصًا شتويًّا دافئًا، كانَ يلبَسه ابنها قبل شَهْريْن. شكَرها على معروفها. اِرتدى القميص، وجلس مُنتظرًا على الرّصيف يقرأ بالقصّة.

سألته عن والديه، فقال: والدتي مريضة، ووالدي مسجون. ولمّا سألته عن سبب سجن والده، أجاب: لم يفعل شيئًا، أوقع به العصافير في السّجن. تأمّلت في داخلها، وتعلّمت معنًى جديدًا للعصفور ستخبره لزياد.

قالَـتْ لـه: سـتَأْتي الحافلـة بعـد رُبْـع سـاعة. ولَمْ يَكْـتَرِثْ لِكلامها. وبعد دقيقتَيْن وصلَتْ إِلى المكـان سيّارة فَخْمـة. صَـعِد إِلى الـسيّارة، ونـاول الـسّائق ذا الـشّارب الكثيـف والنظّارة السّوْداء والقبّعَة الرماديَّة الخمسين شـاقلًا. أَخْفـى القصّة في ثيابه، وابتلَعَت الشّوارع السيّارة.

كانَتْ تنظر مِـنَ النّافـذة. ابتلَعَـتْ ريقهـا، خلَعَـتْ نظّارَتهـا، والدّهشة تعقد على حاجِبَيْها علامة استفهام!

ق

ألفيّة

بلغني أيّها الملك السّعيد أنّ ملكة ساحرة الجمال، كانت تتزوّج في كلّ ليلة رجلًا، فتقضي معه ليلتها، وفي الصّباح يجده الناس مقتولًا خارج بابها.

استمرّت الملكة على هذه الحال حتّى قتلت مئات الرّجال، وما من أحد تجرّأ على الوقوف في طريقها أو سؤالها.

وكان كاهن المملكة في غيظ شديد ممّا يحدث، فقرّر أن يراقب الملكة، ويعرف السرّ الّذي يقف من وراء هذه الجرائم.

وفي إحدى اللّيالي، وبعد أن دخلت الملكة بزوجها الجديد، رآها الكاهن تخرج من شبّاك غرفة النّوم، تلبس ثوبًا أسود،

وتخرج من الباب الخلفيّ للقصر. اقتفى الكاهن أثر الملكة، وشاهدها تدخل إلى المقبرة، وبحذر شديد حاول أن يعرف رغمَ العتمة الدّامسة، ماذا تفعل في هذا المكان الغريب، وفي مثل هذه السّاعة المتأخرة من اللّيل.

وصلت الملكة عند ضريح "مولانا أبو العينين"، وجلست على حجر بجانب الضّريح وأخذت تبكي. استغرب الكاهن مما يجري، ثمّ رأى الضّريح ينشقّ، ويخرج منه "مولانا أبو العينين" واضعًا يده في يد الملكة، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، لكنّ الكاهن استطاع سماع الملكة وهي تسأل: ألا يكفي؟!

- ما حاجتك لكلّ هذه اللّيالي؟

- لكنّ غدًا لناظره بعيد!

شعر الكاهن بحركة غريبة منه، فاختفى بسرعة، في اللّحظة الّتي خرجت الملكة من المقبرة ورجعت إلى القصر.

ألف سؤال وسؤال دار في خيال الكاهن، ولكن لا جواب.

قـرّر الكـاهن أن يراقـب الملكـة في اللّيلـة القادمـة، وغلبـه الهـاجس أنّهـا سـتأتي إلى المقـبرة في الغـد، فقـرّر أن يـسبقها، ويضع جهاز تسجيل ليسجّل كلّ ما يدور من كلام.

في اللّيلة القادمة صدَق حدس الكاهن، فقد خرجت الملكة إلى المقـبرة عنـد منتـصف اللّيـل، بعـد أن قامـت بالواجـب، وارتـدت رداء أسـود. رأى الكـاهن كيـف مـن بعيـد كيـف خرج "مولانـا أبـو العينـين" مـن الـضّريح، والتقـى بالملكـة وتكلّما معًا.

عندما عادت الملكة إلى القصر، وعاد أبـو العينـين إلى عالمـه، أخـذ الكـاهن جهـاز التـسجيل وعـاد مـسرعا إلى شرفتـه الغيبيّة، حيث فتح الجهـاز بلهفـة. لم يتفاجـأ الكـاهن حينما سمع في الشّريط المسجّل صوت "مولانا أبو العينين" فقـط وهو يبكي ويقول:

- هذا يكفي.

- أنا لا أصلح زوجًا لكِ.

- غدًا لناظره قريب.

كانت تلك اللّيلة الألف. في الصباح وجد النّاس الملكة مقتولة خارج بابها، تلبس ثوبًا أبيض، وأدرك شهرزاد الصّباح، فسكتت عن الكلام المباح.

ق

مِرآة على جناحَيْ فراشة

كان يعتقد في طفولته أنّها خيول عريقة الأصل، أو عرائس شاميّة تخرج من بحيرات الزئبق، لكنّه سرعان ما غيّر رأيه، حينما التقى في إحدى خلوات مناجاته بفراشة محلّقة تعبث بجدائل الشمس، وتتقمّص شخصيّات من التاريخ، لتدفن فيها عواصف الرحيل.

- عصور من الرّحيل مرّت عبر بوابة الشّمس لتصل إلى هاويات الاحتراق، وأنتَ أنتَ، ما زلت تجازف وتكسب الرّهان، أترى يضمحلّ فيك التمرّد على قوافل السّير في المنحدرات، وعلى سفوح قهقهات العبث بخدود غانية؟

- ما لكِ وما لَهُ؟ ربّما شهوتكِ لأن تعصري الكلمات في دنّ جناحيكِ، وتطبقي بهما على الكون، فلا يبقى منه سوى أقلّ من ريشة تكتب قصّة خلودكِ، هي البدايات وهي النّهايات لعصور الرّحيل عبر بوابة الشّمس.

- ما لكِ وما لَهُ؟ يكفيكِ أنّه حصان شبق بجنون من الرّؤيا، واستحضار الانفجارات في ملايين المجرّات والنّجوم والعيون الآدميّة.

- ما لكِ وما لَهُ؟ لن يصير فراشة، سيبقى حصانًا أصيلًا لن يتجمّد الصّهيل في حلقومه، أو عروسًا شاميّة تخرج من بحيرات الزّئبق، عذراء تلد القدّيسين.

حينما يعود إلى طفولته يصبح مغرمًا بمطاردة أسراب الفراش، ولا يكاد يرغب بشيء أكثر من لذّة الوقوع في الهاوية.

ق

السّؤال الصّغير

نهضتُ من السّرير منتفضًا، ثـمّ توجّهـتُ إلى العرّافـة "منيـة النّفوس" متسائلًا:

- كيف لي أن أرى الجنّة قبل أن أموت؟

قالت:

- هناك عند الحدود شجرة آدميّة، يتّكئ عليهـا سلّم طويل طويـل، وعـلى الدّرجـة الأخـيرة مبتغاكَ.

وطرتُ من أتون إلى أتون إلى أن وجدت الشّجرة والسلّم.

ابتدأتُ الصّعود، وضجرتُ كم هو طويل! وقبل الدّرجتين الأخيرتين نظرتُ خلفي؛ فإذا جميع الدّرجات التي صعدتها اختفت!

- يا إلهي! السلّم معلّق في الفضاء، وتحته هوّة عميقة، أتون رهيب! ولم يبق من السلّم سوى الدّرجتين الأخيرتين.

صعدتُ الدّرجة ما قبل الأخيرة ونظرتُ خلفي فاختفت، ونظرتُ أمامي فإذا تنّين عملاق ينتظرني وقد فتح شدقيه على ألسنةٍ من اللّهب!

تجمّدتُ من الرّعب، الهوّة أم التنّين؟ لكنّي تجرّأتُ وصعدتُ الدّرجة الأخيرة وابتلعني.

هناك في داخله تنفّستُ الصّعداء، وضحكتُ من سذاجتي وقلتُ:

- كـم هـو صـغير ذلـك الـسّؤال الّـذي سـألته للعرّافة "منية النّفوس"!

ق

جدّتي

جدّتي فضّة تحتفل بعيد ميلادها المئويّ. يوبيلان ذهبيّان مرّا فوق قناطر ظهرها المحدّب، دون أن يخفضا من كبريائها مسافة شعرة رقيقة من ذوائب شعرها.

اجتمع حولها الأحفاد، يتشبّثون بعباءتها، ويتحسّسون عكّازتها الزّيتونيّة. أشعلوا مائة شمعة وشمعة، وطلبوا، وألحّوا في الطّلب؛ أن تقصّ عليهم بعضًا من أخبار هانئ ابن مسعود الشيبانيّ.

لمعت عينا جدّتي، اقتربت من غابة الشّموع، أطفأت الشّمعة الأخيرة، وأبقت على الباقي!

وأخذت تسافر في عيون أحفادها.

الفهرست

مقصّات وسكاكين في الذّاكرة	5
المصوّر	34
أوراق لعب	38
أبو السّعود	41
مرثيّة لطيور النّورس	51
مرآفيا	60
زهرة متوحّشة	65
غيبة الغنمة	69
شجرة الغار	74
أبو السّعود يعود	80
المرأة التي تلد الخراف	87
طفل من هناك	90

ألفيّة	97
مرآة على جناحي فراشة	101
السّؤال الصّغير	103
جدّتي	106

صدر عن منشورات مؤسسة الأفق

1 . عفيف شليوط، جذور الحركة المسرحية الفلسطينية، 2002، (دراسة).

2 . عفيف شليوط، بموت إذا بموت، 2003، (مسرحية).

3 . د. فؤاد خطيب، ذاكرة العنقاء، 2009، (رواية).

4 . عفيف شليوط، اعترافات عاهر سياسي، 2010، (مسرحية).

5 . رشدي الماضي، هُدهُد خارج نبوءة المطر، 2013، (قصائد).

6 . عفيف شليوط، جرس الإنذار، 2013، (قصص قصيرة)، طبعة ثانية.

7 . عفيف شليوط، نافذة على مسرحنا المحلي، 2013، (نقد مسرحي).

8 . نبيهة راشد جبارين، عيون القدس، 2014، (قصائد).

9 . رشدي الماضي، قصائد المدينة، 2014، (قصائد).

10 . عفيف شليوط، الانهيار، 2014، (قصص قصيرة).

11 . نزيه حسون، نايّ الروح، 2015 (قصائد).

12. زياد شليوط، الجميلة، 2015 (قصص قصيرة جدًا).

13 . إياس يوسف ناصر، قبلة بكامل شهرزادها، 2015 (قصائد).

14. د. محمد صفوري، ما بعد الحكي، 2016 (نقد).

15. وهيب نديم وهبة، الجسر، 2016 (قصائد).

16. مصطفى عبد الفتاح، جدار في بيت القاطرات، 2017 (رواية).

17. رشدي الماضي، إلى أين تأخذ حيفا أيّها الفلك، 2017 (قصائد).